المُغني في التَّفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتٍ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ الأحزابِ

(المجلَّدُ الخامسُ والعشرونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة
إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأحزابِ

سُورةُ الأحزابِ

سورةُ الأحزابِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الأحزاب).[1]

فعن زِرٍّ، قال: قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ: (كم تَعُدُّون سورةَ الأحزابِ آيةً؟ قُلْنا: ثلاثةً وسبعينَ...).[2]

سورةُ الأحزابِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ.[3]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأحزابِ:

1- الحضُّ على التَّوجُّهِ إلى الخالقِ مِن غيرِ مراعاةٍ بوجْهٍ ما للخلائقِ.

---

(1) سُمِّيت سورةَ الأحزابِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ الأحزابِ مِن المشركينَ مِن قُرَيشٍ ومَن تحزَّب معهم، أرادوا غزوَ المسلمينَ في المدينةِ، فرَدَّ الله كيْدَهم، وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/377)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/245).

(2) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (7150) واللفظ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (21207).
حسَّنه ابنُ حجَر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (2/304)، وصحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند عمر)) (2/874)، والحاكم في ((المستدرك)) (4/400)، وابن حزم في ((المحلى)) (11/235)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (2913) وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (6/376).

(3) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/422)، ((تفسير ابن الجوزي)) (6/347)، ((تفسير الرازي)) (25/153)، ((تفسير القرطبي)) (14/113)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/377)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/369).

2- بيانُ عنايةِ اللهِ بنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحمايةِ جَنابِه.

3- التَّعرُّضُ لكثيرٍ مِن الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، والآدابِ الاجتِماعيَّةِ، والاهتمامُ بتنظيمِ المجتمَعِ الإسلاميّ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سُورةُ الأحزابِ:

1- توجيهُ النِّداءِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ببعضِ التَّوجيهاتِ؛ بتقْوى اللهِ، وعدَمِ الطَّاعةِ للكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما يُوحي إليه ربُّه، والتَّوكُّلِ عليه وحْدَه.

2- إبطالُ بَعضِ العاداتِ الَّتي كانت سائدةً؛ كالظِّهارِ، والتَّبَنِّي.

3- ذِكرُ بعضِ الأحكامِ التَّشريعيَّةِ؛ كطاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقريرِ كَوْنِ أزواجِه أُمَّهاتِهم، ووُجوبِ التَّوارُثِ بينَ الأقاربِ -كما هو مبيَّنٌ في آياتٍ أُخَرَ-، وإبطالِ التَّوارُثِ عن طريقِ المؤاخاةِ.

4- ذِكرُ غزوَتَيِ الأحزابِ وبَني قُرَيْظةَ.

5- ذِكرُ قصَّةِ تخييرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ فضلِهنَّ، وتوجيهُ بعضِ الإرشاداتِ والأوامرِ لهنَّ.

6- ذِكرُ قِصَّةِ تزويجِ زينبَ بنتِ جَحشٍ رضيَ الله عنها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ طلاقِها مِن زَيدِ بنِ حارثةَ رضيَ الله عنه، والحِكمةِ مِن ذلك، وهي إبطالُ آثارِ التَّبَنِّي.

7- الأمرُ بالإكثارِ مِن ذكرِ اللَّه تعالى ومِن تسبيحِه وتنزيهِه، وبيانُ وظيفةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

8- بيانُ حكمِ المطَلَّقاتِ قبلَ الدُّخولِ.

9- ذِكرُ خصائصِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّكاحِ، ومَن تَحِلُّ له مِن النِّساءِ المؤمناتِ، ومَن تَحْرُمُ عليه.

10- ذِكرُ عَلاقةِ المسلمينَ ببيوتِ النَّبيِّ وزَوجاته، في حياتِه وبعدَ وفاته.

11- الأمرُ بالصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

12- بيانُ جزاءِ الَّذين يُؤْذونَ اللهَ ورسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُؤْذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ.

13- الأمرُ بالحجابِ.

14- تهديدُ المنافقينَ والَّذين في قلوبِهم مرَضٌ، والمُرجِفينَ.

15- سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ، والإجابةُ عن هذا التَّساؤلِ، وذِكرُ أحدِ مَشاهدِ يومِ القيامةِ.

16- الأمرُ بتقوى الله والقَولِ السَّديدِ، وبيانُ جزاءِ ذلك.

17- تحمُّلُ الإنسانِ للأمانةِ.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (1–3)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا
يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2)
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامرِه، واجتِنابِ نواهيه، ودُمْ على تَقْواه.

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

أي: ولا تُطِعْ -أيُّها النَّبيُّ- الكافِرينَ المُظهِرينَ للكُفرِ، والمُنافِقينَ المُبطِنينَ له؛ فهؤلاء أعداؤُك، وليسوا أهلَ نُصحٍ لك.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ عَليمًا بعواقِبِ الأمورِ، وبما تُضمِرُه نفوسُ الكافِرينَ والمنافِقينَ، حكيمًا في تدبيرِ جميعِ أمورِ خَلقِه، وفيما شرَعَ لهم مِن دينِه.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2).

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ.

أي: واعمَلْ -يا مُحَمَّدُ- بما أوحاه إليك ربُّك، وشَرَع لك مِن دينِه، واستَمِرَّ على ذلك.

كما قال تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [الجاثية: 18].

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ بما تَعملونَ خَبيرًا لا يخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3).

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.

أي: واعتَمِدْ -يا مُحَمَّدُ- في أمورِك كُلِّها على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ [الفرقان: 58].

وقال سُبحانَه: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ [النمل: 79].

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

أي: وحَسْبُك اللهُ تعالى وَحْدَه؛ فهو الحافِظُ لكُلِّ شَيءٍ، القادِرُ على تحقيقِ كُلِّ شَيءٍ، والمدبِّرُ لجَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَلتَفِتْ في شَيءٍ مِن أمْرِك إلى غيرِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: 3].

سورةُ الأحزابِ

الآيات (4–6)

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ
(4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (5)

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

جَوْفِهِ: الجوفُ: باطِنُ الإنسانِ؛ صَدرُه وبَطنُه، وهو مَقَرُّ الأعضاءِ الرَّئيسةِ عدا الدِّماغَ.

تُظَاهِرُونَ: الظِّهارُ: قولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ.

أَدْعِيَاءَكُمْ: أي: مَن تَبنَّيتُموهم، جَمْعُ دَعِيٍّ: فَعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ لأنَّه مَدعُوٌّ بالبُنُوَّةِ، وأصلُه مِنَ الادِّعاءِ: وهو زَعمُ الزَّاعِمِ الشَّيءَ حَقًّا له؛ مِن مالٍ أو نَسَبٍ أو نحوِ ذلك.

أَقْسَطُ: أي: أعدَلُ، والقِسْطُ: العدْلُ، يقالُ: أَقسَط يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ: إذا عدَلَ.

وَمَوَالِيكُمْ: أي: محرَّروكم، وقيل: أولياؤُكم في الدِّينِ، والمَوالي جَمْعُ مَوْلًى، ويُطلَقُ على المعتَقِ والحَليفِ وابنِ العمِّ وغيرِ ذلك، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ.

جُنَاحٌ: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): الميلُ والعدوانُ، وسُمِّيَ الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ.

مَسْطُورًا: أي: مكتوبًا مبيَّنًا، ومُثبَتًا محفوظًا، وأصلُ (سطر): اصْطِفافُ الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4).

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.

أي: ما خَلَقَ اللهُ لأيِّ رَجُلٍ قَلبَينِ في صَدرِه؛ فيَعقِلَ بهما.

وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ.

أي: وما جَعل اللهُ زوجاتِكم -أيُّها الرِّجالُ- اللَّاتي تقولونَ لهُنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا، فتُحَرِّمونَ بذلك نِساءَكم على أنفُسِكم حُرمةً مُؤبَّدةً، ما جَعلهنَّ أمَّهاتٍ لكم في الحقيقةِ!

كما قال تعالى: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ [المجادلة: 2].

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ.

أي: وما جَعَلَ اللهُ مَن تَتبنَّونَهم أبناءً لكم في الحقيقةِ، بحيثُ يَحِلُّ لهم إرثُكم، وتَحرُمُ عليكم زَوجاتُهم، وغير ذلك من الأحكامِ؛ فهم أبناءُ غيرِكم وإنِ ادَّعيتُم نِسبتَهم إليكم.

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ.

أي: ذلِكم قَولٌ باطِلٌ تَقولونَه فحَسْبُ، ولا حقيقةَ له في الوُجودِ.

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ.

أي: واللهُ يَقولُ الصِّدقَ والعَدلَ والقَولَ الثَّابِتَ الَّذي يُوافِقُ ظاهِرُه باطِنَه، ومِن ذلك: أمْرُه لكم بدَعوةِ أبناءِ النَّاسِ إلى آبائِهم، وتَرْكِ تبَنِّيهم، ولا يقولُ اللهُ الكَذِبَ والباطِلَ؛ فصَدِّقوا قَولَه، واتَّبِعوا شَرْعَه.

كما قال تعالى: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا [النساء: 122].

وقال سُبحانَه: وَالْحَقَّ أَقُولُ [ص: 84].

وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

أي: واللهُ يُبيِّنُ لعبادِه طَريقَ الحَقِّ، ويَدُلُّهم عليه.

كما قال تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [البقرة: 187].

وقال سُبحانَه: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء: 176].

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [النور: 46].

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5).

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ.

أي: انْسُبوا الأدعِياءَ المُتَبنَّيْنَ لآبائِهم الَّذين ولَدوهم.

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (ما كُنَّا ندعو زَيْدَ بنَ حارِثةَ إلَّا زيدَ ابنَ مُحمَّدٍ، حتَّى نزَل في القُرآنِ: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ).[4]

هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ.

أي: نِسْبَتُكم الأبناءَ لآبائِهم أعدَلُ عندَ اللهِ، وأصدَقُ وأصوَبُ قولًا وحُكمًا مِن نِسبَتِكم لهم إلى الَّذين تبنَّوهم.

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ.

أي: فإنْ لم تعلَموا -أيُّها المُسلِمونَ- آباءَ الأدعياءِ لِتَنسُبوهم إليهم، فهم إخوانُكم في الإسلامِ إن كانوا مُسلِمينَ، ومحرَّروكم؛ فقُولوا عِوَضًا عمَّا فاتَهم مِنَ النَّسَبِ: أخي ومَوْلاي، ولا تقولوا: ابنُ فُلانٍ.

(4) رواه البخاري (4782)، ومسلم (2425) واللفظ له.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: (أنَّ أبا حُذَيفةَ بنَ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ بنِ عَبدِ شَمسٍ -وكان ممَّن شَهِدَ بدرًا مع النَّبيِّ - ﷺ - تبنَّى سالِمًا، وأنكحَه بنتَ أخيه هندَ بنتَ الوليدِ بنِ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وهو مَولًى لامرأةٍ مِن الأنصارِ، كما تبنَّى النَّبيُّ - ﷺ - زَيدًا، وكان مَن تبنَّى رَجُلًا في الجاهليَّةِ دعاه النَّاسُ إليه، ووَرِثَ مِن ميراثِه، حتَّى أنزلَ اللهُ: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ، إلى قَولِه: وَمَوَالِيكُمْ [الأحزاب: 5] ، فرُدُّوا إلى آبائِهم، فمَن لم يُعلَمْ له أبٌ، كان مَوْلًى وأخًا في الدِّينِ).[5]

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ.

أي: وليس عليكم إثمٌ في شَيءٍ أخطَأتُم فيه بلا قَصدٍ منكم للخطَأ، كأن تَنسُبوا إنسانًا لغَيرِ أبيه؛ جَهلًا، أو على سَبيلِ النِّسيانِ، أو سَبقِ اللِّسانِ.

كما قال تعالى: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة: 286].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((أنزل اللهُ تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة: 286]، قال: قد فعَلْتُ)).[6]

---

(5) أخرجه البخاري (5088).

(6) رواه مسلم (126).

وعن عَمرِو بنِ العاصِ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إذا حَكَم الحاكِمُ فاجتَهَد ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حَكَم فاجتهَد ثمَّ أخطأَ فله أجرٌ)).(7)

وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ.

أي: ولكِنْ يؤاخِذُكم اللهُ بما تتعَمَّدونَه بقُلوبِكم، كأن تَنسُبوا إنسانًا إلى غيرِ أبيه، وأنتم تَعلَمونَ أنَّه ليس كذلك.(8)

كما قال تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ [البقرة: 225].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وأبي بَكْرةَ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنهما، كِلاهما يقولُ: سَمِعَتْه أُذُناي، ووعاه قلبي مُحمَّدًا – ﷺ – يقولُ: ((مَنِ ادَّعى إلى غيرِ أبيه وهو يَعلَمُ أنَّه غَيرُ أبيه؛ فالجنَّةُ عليه حَرامٌ)).(9)

---

(7) رواه البخاري (7352)، ومسلم (1716).

(8) قال ابنُ عطية (٧/ ٩٠) في تفسير قوله تعالى: ﴿ولَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ الآيةَ: رفع للحرج عمَّن وهِمَ ونسي وأخطأ، فجرى لسانه على العادة مِن نسبة زيد إلى محمد – ﷺ – وغير ذلك مما يشبهه، وأبقى الجناح في التعمد مع النهي المنصوص.

ثم نقل عن فرقة أنها قالت: بأن خطأهم كان فيما سلف من قولهم ذلك.

ثم انتقد (٧/ ٩١) مستندًا إلى الدلالة العقلية ذلك قائلًا: «وهذا ضعيف، ولا يوصف ذلك بالخطأ إلا بعد النهي، وإنما الخطأ هنا بمعنى: النسيان، وما يكون مقابل العمد».

(9) رواه البخاري (4326)، ومسلمٌ (63) واللَّفظُ له.

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ اللهَ تجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثت به أنفُسَها، ما لم يتكلَّموا أو يَعمَلوا به)).[10]

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: واللهُ هو المتَّصِفُ بالمَغفرةِ؛ فيَسترُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ بالرَّحمةِ؛ ومِن رَحمتِه بعبادِه أنْ بيَّنَ لهم أحكامَ دينِه، وشرَعَ لهم ما يُصلِحُهم، ومِن ذلك رَفْعُ المؤاخَذةِ عن فِعلِ الخَطأِ.

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6).

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

أي: النَّبيُّ محمَّدٌ أحَقُّ بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم؛ فيَجِبُ عليهم تقديمُ طاعتِه، وقَبولُ حُكمِه، واتِّباعُ هَدْيِه، وتقديمُ محبَّتِه على محبَّةِ أنفُسِهم.[11]

---

(10) رواه البخاري (6664)، ومسلم (127) واللَّفظُ له.

(11) نقل ابنُ عطية (٧/ ٩١) في تفسير قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ عن بعض العلماء العارفين بأن المعنى: هو أولى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

كما قال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 65].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((ما مِن مُؤمنٍ إلَّا وأنا أَولى به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ اقرَؤوا إن شِئتُم: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فأيُّما مُؤمنٍ مات وترَك مالًا فلْيَرِثْه عَصبَتُه[12] مَن كانوا، ومَن ترَك دَيْنًا أو ضَياعًا[13] فلْيأتِني؛ فأنا مَولاه)).[14]

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِن والِدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعِين)).[15]

وعن عبدِ اللهِ بنِ هِشامٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ – ﷺ – وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نَفْسي، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: لا

وعلَّق (٧/ ٩٢) عليه بقوله: «ويؤيد هذا قوله عليه الصــلاة والســلام: «أنا آخِذٌ بحُجَزكم عن النار، وأنتم تَقَحَّمون فيها تقحُّم الفراش»».

(12) العَصَبةُ عندَ أهلِ الفرائضِ: اسمٌ لِمَن يَرِثُ جميعَ المالِ إذا انفرَد، والفاضلَ بعدَ فرضِ ذَوي السِّهامِ.

وقيل: العَصَــبةُ: قَرابةُ الرَّجُلِ لأبيه، سُمُّوا بذلك مِن قولِهم: عَصَــبَ القَومُ بفُلانٍ، أي: أحاطوا به، وهم كلُّ مَن يَلتقي مع الميتِ في أبٍ أو جدٍّ، ويَكونون مَعلومينَ.

يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (235/12).

(13) ضَياعًا: أي عيالًا محتاجين.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (222/4).

(14) رواه البخاري (2399) واللفظ له، ومسلم (1619).

(15) رواه البخاري (15) واللفظ له، ومسلم (44).

والَّذي نفْسي بيَدِه حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفْسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ واللهِ لَأنت أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فقال النَّبيُّ – ﷺ –: الآنَ يا عُمَرُ!)).[16]

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ.

أي: وأزواجُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم هُنَّ أمَّهاتُ المُؤمنينَ في حُرمةِ نِكاحِهنَّ، ووُجوبِ تعظيمِهنَّ وإكرامِهنَّ.

وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ.

أي: وذَوُو القَراباتِ أولَى بالتَّوارُثِ فيما بيْنَهم في كتابِ اللهِ[17] مِنَ الأنصارِ والمهاجِرينَ الَّذين كانوا في أوَّلِ الإسلامِ يَتوارَثونَ فيما بيْنَهم؛ بسَبَبِ حَقِّ الأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ، وإنْ لم يكُنْ بيْنَهم رَحِمٌ.

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا.

أي: لكِنْ لكم –أيُّها المهاجِرونَ والأنصارُ– أن تُحسِنوا إلى أوليائِكم ممَّن سِوَى أقارِبِكم، بالوصِيَّةِ والنُّصرةِ والصِّلةِ، وغيرِ ذلك مِن المعروفِ، قليلًا كان أو كثيرًا.[18]

---

(16) رواه البخاري (6632).

(17) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٩٢) في قوله تعالى: ﴿في كتاب الله﴾ أنه: «يحتمل أن يريد: القرآن.
ويحتمل أن يريد: اللوح المحفوظ».

(18) اختلف في معنى: ﴿إلا أنْ تَفْعَلُوا إلى أوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أنه عنى الوصية للمشرك من ذوي الأرحام.
الثاني: أنه عنى الوصية للحلفاء الذين آخى بينهم رسول الله – ﷺ – من المهاجرين والأنصار.

الثالث: أنه عنى الوصية إلى الأولياء من المهاجرين.

ورجَّح ابنُ جرير (١٩/ ٢١) مستندًا إلى الدلالة العقلية: «أن يُقال: معنى ذلك: إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم الذين كان رسول الله – ﷺ – آخى بينهم وبينكم من المهاجرين والأنصار معروفًا مِن الوصية لهم، والنُّصرة والعَقْل عنهم، وما أشبه ذلك؛ لأن كل ذلك من المعروف الذي قد حثَّ الله عليه عباده».

وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما اخترت هذا القول وقلتُ: هو أولى بالصواب مِن قيل مَن قال: عُنِيَ بذلك: الوصية للقرابة مِن أهل الشرك.

لأن القريب من المشرك –وإن كان ذا نسب– فليس بالمولى، وذلك أن الشرك يَقْطَع ولاية ما بين المؤمن والمشرك، وقد نهى الله المؤمنين أن يتخذوا منهم وليًّا بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أوْلِياءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وغير جائزٍ أن ينهاهم عن اتخاذهم أولياء ثم يصفهم –جلَّ ثناؤه– بأنهم لهم أولياء».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٩٣) أن المعنى: «الإحسان في الحياة، والصِّلة والوصية عند الموت».

ونسبه إلى قتادة، والحسن، وعطاء، وابن الحنفية، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا كله جائزٌ أن يُفعَل مع الوليّ على أقسامه، والقريب الكافر يوصى له توصية».

وعلَّق على القول بكونها في المؤمنين بقوله: «ولفظ الآية يعضد هذا المذهب».

ثم ذكر أن تعميم لفظ (الوليّ) أيضًا حسنٌ، وعلَّل ذلك بقوله: «إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالمودة كوليّ الإسلام، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا».

كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا.

أي: إنَّ توارُثَ أُولي الأرحامِ بَعضِهم مِن بَعضٍ: مكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فلا بُدَّ مِن تَشريعِه ونَسخِ ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِنَ التَّوارُثِ بالأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ.

سورةُ الأحزابِ

الآيتان (7–8)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7)

لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مِيثَاقَهُمْ: الميثاقُ: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصلُه: العقدُ والإحكامُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذْ أخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ عَهدًا مُؤكَّدًا على تَصديقِ بَعضِهم بَعضًا، وتبليغِ الدِّينِ وإقامتِه، والقيامِ بتقوى اللهِ، ونَبْذِ طاعةِ الكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما أَوحَى اللهُ به، وأخَذْنا هذا الميثاقَ مِنك -يا محمَّدُ- ومِن نُوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ابنِ مَريمَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

كما قال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى: 13].

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا.

أي: وأخَذْنا مِن جميعِ هؤلاءِ الأنبياءِ عَهدًا عَظيمًا مُؤكَّدًا على القيامِ بدِينِ اللهِ وتَبليغِه، وتَصديقِ بَعضِهم بَعضًا.

كما قال تعالى: أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [آل عمران: 81].

لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8).

لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ.

أي: أخَذ اللهُ الميثاقَ مِن أولئك الأنبياءِ؛ لكيْ يَسألَ[19] الصَّادِقِينَ[20] عن قيامِهم بهذا العَهدِ المؤكَّدِ، فيُثيبَهم الجنَّةَ.

---

(19) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٩٤) أن «اللام في قوله تعالى: ﴿ليسأل﴾ متعلقة بـ ﴿أَخَذْنا﴾».

وذكر لها احتمالين: الأول: «أن تكون لام كي».

ووجَّهه بقوله: «أي: بعثت الرسل وأخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين؛ فرقة يسألها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، كما قال لعيسى – عليه السلام –: ﴿قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ [المائدة: ١١٦] فتجيب كأنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أفعالها، فيثيبُها على ذلك، وفرقة كفرت فينالها ما أعدَّ لها من العذاب الأليم».

والثاني: «أن تكون اللام في قوله: ﴿لِيَسْأَلَ﴾ لام الصيرورة».

ووجَّهه بقوله: «أي: أخذ الميثاق على الأنبياء ليصير الأمر إلى كذا».

ورجَّح الاحتمال الأول قائلًا: «والأول أصوب».

وذكر (٧/ ٩٤ – ٩٥) أن: «الصدق في هذه الآية يحتمل أن يكون: المضاد للكذب في القول.

ويحتمل أن يكون: من صدق الأفعال واستقامتها، ومنه عود صدق، وصدقني السيف والمال».

ونقل عن مجاهد أن ﴿الصادقين﴾ في هذه الآية أراد بها: الرسل، أي: يسأل عن تبليغهم، وقال أيضًا: أراد المؤدِّين المبلغين من الرسل «.

ثم علَّق على هذه المعاني بقوله:» وهذا كله محتمل".

ونقل ابنُ القيم (٢/ ٣٢٧) قول مجاهد، وقول مقاتل بأن المقصود بـ ﴿الصادقين﴾: النبيين، ثم رجَّح مستندًا للنظائر قائلًا: «والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ماذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]».

(20) قيل: السُّؤالُ للأنبياءِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، والرَّسْعَني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/19)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (217/4)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5790/9)، ((الوسيط)) للواحدي (460/3)، ((تفسير السمعاني)) (262/4)، ((تفسير البغوي)) (611/3)، ((تفسير النسفي)) (19/3)، ((تفسير الرسعني)) (108/6).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ.

وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: وأعدَّ اللهُ للكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه مِن جميعِ الأُمَمِ عَذابًا مُؤلِمًا موجِعًا في النَّارِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [الأحزاب: 64، 65].

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (702/2).

قال الزَّجَّاج: (وتأويلُ مسألةِ الرُّسلِ -واللهُ يَعلَمُ أنَّهم صادِقون- التَّبكيتُ لِلَّذين كفَروا بهم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائدة: 116]).

((معاني القرآن وإعرابه)) (217/4).

وقيل: السُّؤالُ لأُمَمِ الأنبياءِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (276/21).

وقيل: السُّؤالُ للأنبياءِ ولأُمَمِهم الَّذين دعَوهم.

وممَّن قال بهذا: السعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 659)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: 84، 85).

سورةُ الأحزابِ

الآيات (9-11)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9)

إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

زَاغَتِ: أي: مالَت وشَخَصَت، وأصلُ الزَّيغِ: المَيلُ عن الاستِقامةِ.

الْحَنَاجِرَ: جمعُ حنجرةٍ، وهي آخرُ الحَلْقِ مما يَلِي الفمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفمَ، وترَاه ناتِئًا مِن خارِجِ الحَلْقِ.

ابْتُلِيَ: أي: اختُبِروا ومُحِّصوا، وأصلُ (بلي) هنا: يدُلُّ على الاختِبارِ.

وَزُلْزِلُوا: أي: أُزعِجوا وحُرِّكوا بالخَوفِ والمرَضِ، وأصلُ (زلزل): يدُلُّ على الاضطِرابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم في صَرفِه الكفَّارَ عنكم حينَ حاصَروكم.

إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا.

أي: حينَ جاءَتكم جُنودُ الكُفَّارِ، فأرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةَ الهُبوبِ.

عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ)).[21]

وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا.

أي: وأرسَلْنا عليهم جُنودًا مِنَ الملائِكةِ لم تَروها.

---

(21) أخرجه البخاري (1035)، ومسلم (900).

قال ابن حجر: (قولُه: «نُصِرْتُ بالصَّبَا» ...

هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ.

والدَّبورُ ...

مُقابِلُها.

يُشيرُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قولِه تعالَى في قصَّةِ الأحزابِ: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا).

((فتح الباري)) (301/6).

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا.

أي: وكان اللهُ بما تعمَلونَ -أيُّها المؤمِنونَ- بَصيرًا بأعمالِكم الصَّالحةِ في تلك الغَزوةِ، وسيُجازيكم عليها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: تَعْمَلُونَ قراءتانِ:

1- قِراءةُ: يَعْمَلُونَ على معنى عَودِ الضَّميرِ على الجُنودِ والأحزابِ الَّذين تألَّبوا على النَّبيِّ - ﷺ - والمؤمِنينَ معه.[22]

2- قِراءةُ: تَعْمَلُونَ على معنى أنَّه خِطابٌ للنَّبيِّ - ﷺ - ومَن معه مِن المؤمِنينَ.[23]

(22) قرأ بها: أبو عمرو.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (347/2).
ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 570)، ((تفسير ابن عطية)) (372/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (300/15).

(23) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (347/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 570)، ((تفسير ابن عطية)) (372/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (300/15).

إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10).

إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ.

أي: إذْ جاءَتْكم جنودُ الأحزابِ -أيُّها المؤمِنونَ- مِن فوقِكم مِن جِهةِ المَشرِقِ.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في قَولِه تعالى: إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قالت: (كان ذاك يومَ الخَندَقِ).[24]

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ.

أي: وجاؤوكم مِن أسفَلَ منكم مِن جِهةِ المغرِبِ.

وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ.

أي: وإذ مالَتْ أبصارُ المُسلِمينَ عَن مقرِّها؛ مِن شِدَّةِ الخوفِ والفَزَعِ.

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ.

أي: وزالت القُلوبُ عن أماكِنِها في الصُّدورِ؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والرُّعبِ، فبلَغَت الحناجِرَ.

---

(24) رواه البخاري (4103) واللفظ له، ومسلم (3020).

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا.

أي: وتظنُّونَ باللهِ ظُنونًا شَتَّى.

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11).

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ.

أي: فعندَ تلك الشِّدَّةِ العَظيمةِ اختبرَ اللهُ إيمانَ القَومِ ومحَّصَهم؛ لِيَتمَيَّزَ المؤمِنُ مِنَ المنافِقِ.

وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا.

أي: وحُرِّكوا وأُزعِجوا إزعاجًا شَديدًا.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (12–17)

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ
لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ
إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا
يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
(15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16)
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17)

غَريبُ الكَلِماتِ:

غُرُورًا: أي: باطلًا مِن القولِ، وغَررْتُ فلانًا: أصَبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر): نقصانٌ.

عَوْرَةٌ: أي: مَكشوفةٌ ليست بحَصينةٍ، وأصلُ العَورةِ: ما ذهَبَ عنه السَّترُ والحِفظُ، وكأنَّ الرِّجالَ سَترٌ وحِفظٌ للبُيوتِ، فإذا ذَهَبوا عنها أعوَرَت البُيوتُ.

أَقْطَارِهَا: أي: جوانِبِها ونواحيها، واحِدُها قُطرٌ، والقُطرُ: الجانِبُ والنَّاحيةُ.

الْفِتْنَةَ: أي: الكُفرَ والشِّركَ، والفَتنُ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ.

تَلَبَّثُوا: أي: احْتَبَسوا، أو: أبطَؤوا، والتَّلَبُّثُ: اللُّبْثُ، أي: الاستقرارُ في المكانِ، يُقالُ: لَبِث بالمكانِ: أقامَ، وأصلُ (لبث): يدُلُّ على تمَكُّثٍ.

يَعْصِمُكُمْ: أي: يَمنعُكم ويُجيرُكم، والاعتِصامُ: التَّمسُّكُ بالشَّيءِ، والامتناعُ به، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمةٍ.

وَلِيًّا: أي: يَلِيهم بالكفايةِ، أو: قريبًا يَنْفَعُهم، والوليُّ: الحَليفُ والنَّاصرُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (12).

أي: واذكُرْ إذْ يقولُ المنافِقونَ وضِعافُ الإيمانِ الَّذين في قُلوبِهم شَكٌّ وشُبهةٌ: ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ النَّصرِ والتَّمكينِ إلَّا وُعودًا كاذِبةً باطِلةً لا وَفاءَ لها!

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (13).

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.

أي: وإذ قالت طائفةٌ مِنَ المنافِقينَ: يا أهلَ يَثرِبَ لا إقامةَ لكم هنا للرِّباطِ والقِتالِ؛ فارجِعوا إلى بُيوتِكم هارِبينَ، واترُكوا الرَّسولَ وأصحابَه.

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ.

أي: ويَطلُبُ فَريقٌ مِنَ المنافِقينَ الإذْنَ مِن النَّبيِّ – ﷺ – بالانصرافِ إلى منازِلِهم، يَقولونَ مُعتَذِرينَ: إنَّ بُيوتَنا ليست بحَصينةٍ، فنَخشَى أن يَهجُمَ عليها العدُوُّ، فنُريدُ الانصِرافَ لِحِراستِها.(25)

وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا.

أي: وليست بُيوتُ هؤلاء المنافِقينَ مَكشوفةً للعَدُوِّ كما يدَّعونَ، ولكِنَّهم يُريدونَ بهذا الفِرارَ مِنَ الجِهادِ.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14).

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا.

أي: ولو دخَلَ الكُفَّارُ المتحَزِّبونَ المدينةَ مِن نواحيها على هؤلاء الَّذين يَقولونَ: إنَّ بُيوتَنا عَورةٌ، ثمَّ سألوهم الرُّجوعَ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ، لَفعَلوا ما طُلِبَ منهم!

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا.

أي: ولَأَسرعَ المُنافِقونَ إلى إعطائِهم ما سألوهم مِنَ الفِتنةِ، ولم يَتردَّدوا عن إجابتِهم إلَّا زمَنًا قَليلًا!

---

(25) ذكر ابنُ كثير (١١/ ١٣٢) أن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إلا فِرارًا﴾: «لو دخل عليهم الأعداء مِن كل جانب من جوانب المدينة، وقطر من أقطارها، ثم سـئلوا الفتنة –وهي الدخول في الكفر– لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع».

ثم علَّق على هذا المعنى بقوله: «وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذم».

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: لَآتَوْهَا قِراءتان:

1- لَأَتَوْهَا مقصورةٌ بغيرِ مَدٍّ؛ أي: لجَاؤُوها.[26]

2- لَآتَوْهَا بالمدِّ، أي: لَأَعْطَوْها مِن أنفُسِهم، وأجابوا إليها.[27]

---

(26) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ.

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (348/2)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: 453).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 289)، ((معاني القراءات)) للأزهري (280/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 574).

(27) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (348/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 289)، ((معاني القراءات)) للأزهري (280/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 574).

قال السمين: (المعنى: ولو دُخِلَتِ البُيوتُ أو المدينةُ مِن جميعِ نواحيها، ثمَّ سُئِل أهلُها الفِتنةَ لم يَمتنِعوا مِن إعطائها. وقراءةُ المَدِّ تَستلزِمُ قِراءةَ القَصرِ مِن غيرِ عكسٍ بهذا المعنى الخاصّ).

((الدر المصون)) (102/9).

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15).

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ.

أي: ولقد كان هؤلاءِ المُنافِقونَ المُنصَرِفونَ عن الجِهادِ مع رَسولِ اللهِ، القائلونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ عاهَدوا اللهَ مِن قَبلِ هذه الغَزوةِ وحالةِ الخَوفِ الَّتي أصابَتْهم: ألَّا يَفِرُّوا، فأخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه.

وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا.

أي: وكان عَهدُ اللهِ مَسؤولًا عنه؛ فسيَسألُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُهم عن العَهدِ الَّذي نَقَضوه.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16).

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لأولئك الَّذين يَستأذِنونك في الانصِرافِ عن الجِهادِ: لن يَنفَعَكم الهَرَبُ -الَّذي ما كان استِئذانُكم إلَّا بسَبَبِه- إنْ هرَبتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ؛ فهو لا يُؤَخِّرُ آجالَكم، فمَن حَضَرَ أجَلُه فلا بُدَّ مِن وُقوعِ ما كتَبَه اللهُ عليه بلا تأخيرٍ.

كما قال تعالى: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ [آل عمران: 154].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء: 77، 78].

وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: وإذا فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ فلن يَزيدَ ذلك في أعمارِكم شَيئًا، وإنَّما ستُمَتَّعونَ في الدُّنيا قليلًا إلى الوَقتِ الَّذي تنقضي فيه أعمارُكم المكتوبةُ عندَ اللهِ تعالى.

كما قال سُبحانَه: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [الشعراء: 205 – 207].

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17).

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يَنصرِفونَ عن الجِهادِ هَرَبًا مِنَ القَتلِ: مَنِ الَّذي يمنَعُكم مِن اللهِ إن أراد بكم سُوءًا في أنفُسِكم، كقَتلٍ أو بلاءٍ؛ أو أراد بكم رَحمةً، كعافيةٍ وسَلامةٍ ونَصرٍ؟ فاللهُ تعالى وَحْدَه هو المعطي المانِعُ، الَّذي لا يأتي بالخَيرِ إلَّا هو، ولا يدفَعُ الشَّرَّ إلَّا هو؛ فلا الفِرارُ مانعٌ مِنَ السُّوءِ إن أراد اللهُ تعالى وُقوعَه بكم، ولا البَقاءُ جالبٌ للرَّحمةِ.

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.

أي: ولا يجِدُ أولئك المنافِقونَ وَليًّا يتولَّى أمورَهم وينفَعُهم، ولا يجِدونَ نَصيرًا يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ حينَ يَنزِلُ بهم.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (18–20)

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْمُعَوِّقِينَ: أي: المُثَبِّطينَ الصَّارِفينَ عن طَريقِ الخَيرِ، يُقالُ: عاقه واعتاقَه وعَوَّقه: إذا صَرَفه عن الوَجهِ الَّذي يُريدُه، والتَّعويقُ: ترغيبُ النَّاسِ عن الخيرِ.

هَلُمَّ: أي: تَعالَوا إلينا، وهي كَلِمةٌ تدُلُّ على دَعوةٍ إلى شَيءٍ.

الْبَأْسَ: أي: القِتالَ والحَربَ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها.

أَشِحَّةً: أي: بُخلاءَ ليس فيهم خَيرٌ، والشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ.

سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ: أي: آذَوكم بالكَلامِ بألسِنةٍ سَليطةٍ، والسَّلقُ: قُوَّةُ الصَّوتِ والصِّياحِ، وبَسطُ اللِّسانِ.

الْأَحْزَابُ: أي: الجماعاتِ، وهم كفَّارُ قريشٍ، ومَن معهم، جمعُ حِزبٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، أو: كلُّ طائفةٍ هواهم واحدٌ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: إذا تجمَّعوا فصاروا أحزابًا، والطَّائفةُ مِن كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، وأصلُ (حزب): تَجَمُّعُ الشَّيءِ.

بَادُونَ: أي: مُقيمونَ في الباديةِ، يقالُ: بَدا يَبْدو بَداوةً: إذا خرَجَ إلى الباديةِ، والبَدْوُ: ضِدُّ الحَضَرِ؛ سُمِّيَ بَدْوًا لأنَّ سُكَّانَه بادُونَ، أي: ظاهِرونَ لكُلِّ واردٍ؛ إذ لا تَحجُبُهم جُدرانٌ، ولا تُغلَقُ عليهم أبوابٌ، وأصلُ (بدو): يدُلُّ على الظُّهورِ والبُروزِ.

الْأَعْرَابِ: جَمعُ أعرابيٍّ، وهم أهلُ البَدْوِ، وأصلُ (عرب): يدُلُّ على إبانةٍ وإفصاحٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18).

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ.

أي: قد يَعلَمُ اللهُ المثَبِّطينَ منكم الَّذين يَصُدُّونَ عن رَسولِ اللهِ - ﷺ -، وعن الخُروجِ معه للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا.

أي: ويَعلَمُ القائِلينَ لإخوانِهم:[28] أقبِلوا إلينا، وتَعالَوا إلى ما نحنُ فيه مِنَ الرَّاحةِ والنَّعيمِ، ودَعُوا محمَّدًا، واترُكوا الجِهادَ معه؛ فإنَّا نخافُ عليكم الهَلاكَ.

---

(28) قيل: المرادُ بهم: أصحابُهم وعُشَراؤُهم، وخُلَطاؤُهم وأولياؤُهم.
وممَّن قال بهذا: السمرقندي، وابنُ كثير.
يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (52/3)، ((تفسير ابن كثير)) (390/6).
وقيل: المراد: لإخوانِهم مِن ساكِني المدينةِ مِن أنصارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ.
وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، والرسعني، والقاسمي.
يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (220/4)، ((تفسير الزمخشري)) (529/3)، ((تفسير البيضاوي)) (227/4)، ((تفسير الرسعني)) (121/6)، تفسير القاسمي)) (57/8).
قال ابن عثيمين: (سُمُّوا إخوانَهم في النَّسَبِ، وليسوا إخوانَهم في الدِّينِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُرادَ الأُخُوَّةُ الظَّاهرةُ؛ فإنَّ هؤلاء يَتظاهَرون بأنَّهم مؤمنون).
((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: 143).

وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: ولا يَشهَدونَ الحَربَ أو مَكانَها إلَّا زَمنًا قليلًا؛ رياءً وسُمعةً.(29)

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19).

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ.

أي: أشِحَّةً على المؤمِنينَ بكُلِّ ما فيه مَنفَعةٌ لهم، حريصينَ على مَنعِ كُلِّ خَيرٍ مِنَ الوُصولِ إليهم.

فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.

أي: فإذا جاء القِتالُ فحضَرَ الخَوفُ، رأيتَ المنافِقينَ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك وأعينُهم تَدورُ سَريعًا مُحَملِقةً في الجِهاتِ المحيطةِ؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم وخَوفِهم مِنَ القَتلِ، كدَوَرانِ عَينِ مَن يُغمَى عليه بسَبَبِ النَّزعِ عندَ مَوتِه!

---

(29) قال ابنُ عطية (٧/ ١٠١ ط: دار الكتب العلمية): «﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: إلا إتيانًا قليلًا، وقلته يحتمل أن يكون لقصر مدته وقلة أزمنته، ويحتمل أن يكون لخساسته وقلة غنائه، وأنه رياء وتلميع لا تحقيق».

فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ.

أي: فإذا انقطَعَت الحَربُ فذهَبَ الخَوفُ، واطمأنَّ المنافِقونَ وأمِنوا؛ تكلَّموا بكلامٍ شَديدٍ قَوِيٍّ.[30]

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ.

أي: بُخلاءَ بكلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ، فليس فيهم خيرٌ.[31]

---

(30) اختلف السلف في قوله: ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ على أقوال: الأول: أن ذلك سلقهم إياهم عند الغنيمة بمسألتهم القسم لهم.

الثاني: ذلك سلقهم إياهم بالأذى.

الثالث: أنهم يسلقونهم من القول بما تحبون نفاقًا منهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٩/ ٥٥) مستندًا إلى الظاهر ودلالة العقل القول الأول، وبيّن أن الثاني لازم له، فقال: «وأشبه هذه الأقوال بما دل عليه ظاهر التنزيل قولُ مَن قال: ﴿سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾ فأخبر أنّ سلقهم المسلمين شحًّا منهم على الغنيمة والخير، فمعلوم إذ كان ذلك كذلك أن ذلك لطلب الغنيمة، وإذا كان ذلك منهم لطلب الغنيمة دخل في ذلك قولُ مَن قال: معنى ذلك: سلقوكم بالأذى؛ لأن فعلهم ذلك كذلك لا شك أنه للمؤمنين أذى».

وقد ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٠٢) في قوله تعالى: ﴿فإذا ذهب الخوف﴾ احتمالين: الأول: أنه خوفهم من العدو.

الثاني: أنه خوفهم من النبي – ﷺ – وأصحابه.

ورتب ابنُ عطية على هذين الاحتمالين في الخوف احتمالين في قوله: ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾، فقال: «واختلف الناس في المعنى الذي فيه يسلقون، فقال يزيد بن رومان وغيره: ذلك في أذى المؤمنين وسبهم وتنقص الشرع ونحو هذا، وقال قتادة: ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة.

وهذان القولان يترتبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف».

(31) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿أشحة عليكم﴾ على أقوال: الأول: أشحة عليكم في الغنيمة.

الثاني: أشحة عليكم بالخير.

الثالث: أشحة عليكم بالنفقة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٩/ ٥٢) العمومَ، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنّ الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، ولم يخصص وصفهم مِن معاني الشح بمعنًى دون معنًى، فهم كما وصفهم الله به أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله، على أهل مسكنة المسلمين».

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ [التوبة: 58].

أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ.

أي: أولئك المنافِقونَ البُغَضاءُ البُعَداءُ لم يُؤمِنوا بقُلوبِهم وإن أقرَّت ألسِنَتُهم، ولم يُخلِصوا في أعمالِهم؛ فأبطَلَها اللهُ سُبحانَه، فلا يُثيبُهم عليها في الآخِرةِ.(32)

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

أي: وكان إحباطُ اللهِ لأعمالِ المُنافِقينَ سَهلًا عليه، ولا يَعبأُ بهم.

وبنحوه ابنُ عطية (٧/ ١٠٢)، حيث ذكر هذه الأقوال، ثم قال معلّقًا: «والصــواب تعميم الشـــح، وأن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة».

(32) بيّن ابنُ جرير (١٩/ ٥٥) أن المراد بقوله: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾ هم أهل الكفر والنفاق، ثم قال: «وذُكِر أن الذي وصف بهذه الصفة كان بدريًّا، فأحبط الله عمله».

وأورد قول ابن زيد.

وذكر ابنُ عطية (٧/ ١٠٣) قول ابن زيد، وانتقده بقوله: «وهذا فيه ضعف».

ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٠٣) في قوله: ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ احتمالين، فقال: «والإشارة بـــــ ﴿ذلِكَ﴾ في قوله: ﴿وكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِــيرًا﴾ يحتمل أن تكون إلى إحباط عمل هؤلاء المنافقين، ويحتمل أن تكون إلى جملة حالهم وما وصــف من شحهم ونظرهم وغير ذلك مِن أعمالهم، أي: أن أمرهم يسير؛ لا يبالى به، ولا له أثر في دفع خير، ولا جلب شر».

وجّه ابنُ عطية (٧/ ١٠٣) القول بأن الآية في المنافقين، كما في قول يحيى بن ســلام، فقال: «وجمهور المفســرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أعمالهم﴾ أي: أنها لم تقبل قط، فكانت كالمحبطة».

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20).

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا.

أي: يَظُنُّ المنافِقونَ -بسَبَبِ جُبنِهم وشِدَّةِ خوفِهم- أنَّ الكُفَّارَ المتحَزِّبينَ ما زالوا حوْلَ المدينةِ لم يَنصَرِفوا عنها.

وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ.

أي: وإنْ يَرجِعِ الكُفَّارُ مَرَّةً أخرى للقِتالِ أو حِصارِ المدينةِ يَتمَنَّ المنافِقونَ -مِن شِدَّةِ جُبنِهم وخَوفِهم- أنَّهم غائِبونَ في الباديةِ مع البَدْوِ يَسألونَ النَّاسَ عن أخبارِكم أيُّها المُسلِمونَ.

وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا.

أي: ولو كان المنافِقونَ حاضِرينَ معكم حينَ يأتي الكُفَّارُ مَرَّةً أُخرى، فلن يُقاتِلوهم إلَّا قِتالًا قليلًا؛ رياءً وسُمْعةً، بلا احتِسابٍ منهم للأجرِ.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (21–24)

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا
(21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)

غَريبُ الكَلِماتِ:

أُسْوَةٌ: أي: ائتمامٌ، واتِّباعٌ، وقُدوةٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ.

قَضَى نَحْبَهُ: أي: قُتِل في سبيلِ الله، وفَرَغ مِن العملِ الَّذي كان نَذَره لله، وأوْجَبه له على نفْسِه، فاسْتُشْهِد، والنَّحْبُ: النَّذْرُ المحكومُ بوُجوبِه، ويُعبَّرُ بذلك عمَّن مات، كقَولِهم: قضى أجَلَه، كأنَّه ألزَمَ نَفْسَه أن تموتَ فوفَى به، وأصلُ (نحب): يدُلُّ على نَذرٍ وما أشبَهَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21).

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمنونَ - قُدوةٌ حَسَنةٌ في رَسولِ اللهِ وجِهادِه، وبَذْلِه نَفْسَه لنُصرةِ دينِ اللهِ، وصَبرِه ومُصابَرتِه ومُرابطتِه في غَزوةِ الخَندقِ؛ فتأَسَّوا به في ذلك وغيرِه.

كما قال تعالى: لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ [التوبة: 88].

لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا.

أي: إنَّ رَسولَ اللهِ قُدوةٌ حَسَنةٌ لِمَن كان يرجو اللهَ ولقاءَه، وثوابَه ورحمتَه، ويرجو يومَ القيامةِ والجَزاءَ فيه، وذكَر اللهَ ذِكرًا كثيرًا.

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22).

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

أي: ولَمَّا رأى المؤمِنونَ جُنودَ الكُفَّارِ الَّذين تحَزَّبوا وتألَّبوا عليهم في غَزوةِ الخَندَقِ؛ قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ الابتِلاءِ وما يَعقُبُه مِن النَّصرِ وحُسنِ الجَزاءِ، وصَدَق اللهُ ورَسولُه في وَعْدِنا بذلك.(33)

---

(33) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٠٤ – ١٠٥) في الوعد الذي حدث به المؤمنون أن الله وعدهم به قولين، فقال: «واختلف المتأولون ماذا أرادوا بوعد الله ورسوله لهم؟ فقالت فرقة: أرادوا ما أعلمهم به رسول الله – ﷺ – حين أمر بحفر الخندق، فإنه أعلمهم بأنهم سيُحصرون، وأمَرَهم بالاستعداد لذلك، وبأنهم سينتصرون من بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسولُه.

فسلموا الأمر وانتظروا آخره.

وقالت فرقة: أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة [٢١٤] من قوله: ﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ والضَّرّاءُ وزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾».

ثم علّق عليهما بقوله: «ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية، وفي قول رسول الله – ﷺ – عند أمرهم بحفر الخندق، وأشاروا بالوعد إلى جميع ذلك، وهي مقالتان إحداهما من الله، والأخرى من رسوله».

كما قال سُبحانَه: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: 214].

وقال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا [النور: 55].

وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.

أي: ولم يَزِدِ الصَّحابةَ ما رأَوا مِنِ اجتِماعِ الكُفَّارِ عليهم وما أصابَهم مِنَ البلاءِ في غزوةِ الخندقِ إلَّا إيمانًا باللهِ ورَسولِه، وتَصديقًا بوَعدِه بالنَّصرِ، وانقيادًا لقَضائِه، وطاعةً لأمرِه وأمرِ رَسولِه.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (عَمِّي أي: أنسُ بنُ النَّضرِ الَّذي سُمِّيت به لم يَشهَدْ مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - بَدرًا، فشَقَّ عليه، قال: أوَّلُ مَشهَدٍ شَهِدَه رَسولُ الله - ﷺ - غُيِّبتُ عنه! وإنْ أَراني اللهُ مَشهَدًا فيما بعْدُ مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - لَيَراني اللهُ ما أصنَعُ! فهاب أن يقولَ غيرَها، فشَهِدَ مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - يومَ أُحُدٍ، فاستقبَلَ سَعدَ بنَ مُعاذٍ، فقال له أنَسٌ: يا أبا عَمرٍو، أينَ؟ فقال: واهًا لريحِ الجَنَّةِ أجِدُه دُونَ أحُدٍ! فقاتَلَهم حتَّى قُتِلَ، فوُجِدَ في جَسَدِه بِضْعٌ وثمانون مِنْ بينِ ضَربةٍ وطَعنةٍ ورَميةٍ، فقالت أختُه عَمَّتي الرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضرِ: فما عرَفْتُ أخي إلَّا ببنانِه.[34] ونزَلَت هذه الآيةُ: رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، فكانوا يُرَونَ أنَّها نزَلَت فيه وفي أصحابِه).[35]

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

أي: مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه رِجالٌ صادِقونَ وَفَوْا بعَهدِهم مع اللهِ، فبَذَلوا نُفوسَهم في مَرْضاتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [الفتح: 10].

---

(34) البَنانُ: الأصابِعُ، وقيل: أطرافُها، واحِدتُها: بَنانةٌ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (157/1).
(35) رواه البخاري (2805)، ومسلم (1903) واللَّفظُ له.

فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ.

أي: فمِنَ المؤمنينَ الصَّادِقينَ مَن بَذَلَ جُهدَه حتَّى فرَغَ مِنَ العَمَلِ الَّذي عاهَدَ اللهَ عليه، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، أو عاشَ على الاستِقامةِ والطَّاعةِ، والجِهادِ والثَّباتِ عندَ لقاءِ العَدُوِّ حتَّى مات.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ.

أي: ومِنهم مَن ينتَظِرُ قَضاءَ عَهدِه وإتمامَه، كما وَفَى مَن مضَى منهم بعَهدِه لله.

وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

أي: ولم يُغيِّرِ المؤمنونَ الصَّادِقونَ عَهْدَهم ونَذْرَهم كما فعَلَ المنافِقونَ، ولا استَبدَلوا به غيرَه، بل وفَوْا به وأتَمُّوه.

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة: 75 – 77].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا [الأحزاب: 15].

وعن أبي حازمٍ، قال: سَمِعتُ سَهلَ بنَ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: سَمِعتُ النَّبيَّ – ﷺ – يقولُ: ((أنا فرَطُكم[36] على الحَوضِ، فمَن ورَدَه شَرِبَ منه، ومَن شَرِبَ منه لم يَظمَأْ بعْدَه أبدًا، لَيَرِدُ علَيَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويَعرِفوني، ثمَّ يُحالُ بيْني وبيْنَهم. قال أبو حازمٍ: فسَمِعَني النُّعمانُ بنُ أبي عيَّاشٍ وأنا أُحَدِّثُهم هذا، فقال: هكذا سَمِعْتَ سَهْلًا؟ فقُلتُ: نعمْ. قال: وأنا أشهَدُ على أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ لَسَمِعتُه يَزيدُ فيه قال: إنَّهم مِنِّي، فيُقالُ: إنَّك لا تَدري ما بدَّلوا بَعْدَك، فأقولُ: سُحْقًا سُحْقًا[37] لِمَن بدَّل بعدي!)).[38]

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24).

---

(36) الفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونَحوَها حتَّى يرِدُوا فيَشرَبوا.

فمعنى: ((فَرَطُكم على الحَوضِ)): سابِقُكم إليه، كالمُهَيِّئِ له.

يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (2274/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (53/15).

(37) سُحْقًا سُحْقًا: أي: بُعدًا بُعدًا، والتَّأكيدُ لِلمُبالَغة.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (139/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (385/11).

(38) رواه البخاري (7050) واللفظ له، ومسلم (2290).

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ.

أي: يَبتلي اللهُ عِبادَه بالخَوفِ والشَّدائِدِ، ويأمُرُ المؤمِنينَ بجِهادِ الكافِرينَ؛ لِيُثيبَ المؤمنينَ الصَّادِقِينَ؛ بسَبَبِ صِدقِهم فيما عاهَدوا اللهَ عليه، وقيامِهم بالوَفاءِ به.

كما قال تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران: 179].

وقال سُبحانَه: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [محمد: 31].

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المنافِقينَ الَّذين نَقَضوا عَهْدَهم ولم يَثبُتوا على دينِهم إذا لم يَشَأْ هِدايتَهم في الدُّنيا؛ أو يُوَفِّقَهم للتَّوبةِ إن شاء فلا يُعَذِّبَهم.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ، فيَرحَمُ عِبادَه.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (25–27)

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا
(25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26)

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)

غَريبُ الكَلِماتِ:

ظَاهَرُوهُمْ: أي: أعانوهم وساعَدوهم، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

صَيَاصِيهِمْ: أي: حُصونِهم الَّتي تحَصَّنوا بها، وكُلُّ ما يُتحَصَّنُ به يقالُ له: صِيصِيَةٌ.

لَمْ تَطَئُوهَا: أي: لم تَملِكوها، ولم تَدُوسوها بعْدُ بأقدامِكم، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25).

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ.

أي: وردَّ اللهُ جُنودَ الأحزابِ إلى بِلادِهم بغَيْظِهم خائِبينَ لم يَشْفِ صُدورَهم، مع تكَلُّفِهم الإعدادَ والإنفاقَ، والسَّفَرَ وطُولَ المُكثِ حَوْلَ المدينةِ، مع حُصولِ التَّعَبِ والعَناءِ بلا جَدوى!

لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا.

أي: لم يَنالوا أيَّ خيرٍ كان في حِسْبانِهم؛ كالنَّصرِ، أو أخْذِ أموالٍ، أو أسْرِ أحدٍ مِنَ المُسلِمينَ، بل رجَعوا خاسِرينَ!

وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ.

أي: وأراح اللهُ المؤمِنينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ، وأغناهم عن مُحارَبتِهم ودَفْعِهم يومَئذٍ.

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوفى رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دعا رَسولُ اللهِ – ﷺ – يومَ الأحزابِ على المُشرِكينَ، فقال: اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكِتابِ، سَريعَ الحِسابِ، اللَّهُمَّ اهزِمِ الأحزابَ، اللَّهُمَّ اهزِمْهم وزَلْزِلْهم)).[39]

---

(39) رواه البخاري (2933) واللفظ له، ومسلم (1742).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان إذا قَفَل[40] مِن غَزوٍ أو حَجٍّ أو عُمرةٍ يُكَبِّرُ على كُلِّ شَرَفٍ[41] مِنَ الأرضِ ثلاثَ تَكبيراتٍ، ثمَّ يَقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، آيِبون تائِبونَ عابِدون، لِرَبِّنا حامِدونَ، صدَقَ اللهُ وَعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه)).[42]

وفي حديثِ حجَّةِ الوداعِ قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه: ((... فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ [البقرة: 158]، أبدأُ بما بدَأ اللهُ به. فبدَأ بالصَّفا، فرَقِيَ عليه، حتَّى رأى البَيتَ فاستقبَلَ القِبْلَةَ، فوحَّد اللهَ، وكبَّرَه، وقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه، أنجَز وعْدَه، ونصَر عبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وحْدَه. ثمَّ دعا بيْنَ ذلك، قال مِثلَ هذا ثلاثَ مرَّاتٍ...)).[43]

---

(40) قَفَل: أي: رجَعَ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (3/277).
(41) شَرَفٍ: أي: مكانٍ عالٍ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (3/277).
(42) رواه البخاري (6385) واللفظ له، ومسلم (1344).
(43) أخرجه مسلم (1218).

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالقُوَّةِ على فِعلِ ما يَشاءُ؛ فيَنصُرُ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ منهم، وهو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ؛ فقَدْرُه عَظيمٌ، يمتَنِعُ عليه سُبحانَه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، وهو يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، ويَنصُرُ أولياءَه، ويَقهَرُ أعداءَه، ولا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26).

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ.

أي: وأنزل اللهُ يهودَ بَني قُرَيظةَ الَّذين ناصَروا وأعانوا الأحزابَ على حَربِ رَسولِ اللهِ - ﷺ - والمُسلِمينَ معه؛ أنزَلَهم مِن حُصونِهم العاليةِ.

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.

أي: وألقَى اللهُ في قُلوبِهم الخَوفَ الشَّديدَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلم يَقْوَوْا على قِتالِهم، واستَسْلَموا لهم، ونَزَلوا على حُكمِهم.

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ.

أي: تَقتُلونَ -أيُّها المُسلِمونَ- جماعةً منهم، وهم الرِّجالُ البالِغونَ.

وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا.

أي: وتأسِرونَ جَماعةً منهم، وهم النِّساءُ والذُّرِّيَّةُ.

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أُصيبَ سَعدٌ يومَ الخَندقِ؛ رماهُ رجُلٌ مِن قُرَيشٍ -يُقالُ لهُ: ابنُ العَرِقَةِ- رماهُ في الأَكْحَلِ،(44) فضرَبَ عليه رَسولُ اللهِ - ﷺ - خيمةً في المسجِدِ؛ يَعودُه مِن قريبٍ، فلمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ - ﷺ - مِنَ الخَندَقِ وضعَ السِّلاحَ، فاغتَسَلَ، فأتاهُ جِبريلُ وهو يَنفُضُ رأسَه مِنَ الغُبارِ، فقال: وضَعْتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعْناهُ! اخرُجْ إليهم. فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: فأينَ؟ فأشار إلى بَني قُرَيْظَةَ. فقاتَلَهم رسولُ اللهِ - ﷺ -، فنزَلوا على حُكمِ رسولِ اللهِ - ﷺ -، فردَّ رَسولُ اللهِ - ﷺ - الحُكمَ فيهم إلى سَعدٍ، قال: فإنِّي أحكُمُ فيهم أن تُقتَلَ المُقاتِلةُ، وأن تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ والنِّساءُ، وتُقْسَمَ أموالُهم)).

وفي روايةٍ: ((لقد حَكَمْتَ فيهم بحُكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ)).(45)

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((نزَل أهلُ قُرَيْظَةَ على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فأرسَل رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى سَعدٍ، فأتاهُ على حِمارٍ، فلمَّا دنا قريبًا مِن المسجِدِ، قال رَسولُ اللهِ - ﷺ - للأنصارِ:

---

(44) الأكحَل: عِرقٌ في اليدِ إذا قُطِعَ لم يَرقَأِ الدَّمُ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (94/12).

(45) أخرجه البخاري (4122)، ومسلم (1769) واللفظ له.

قُوموا إلى سيِّدِكم، أو خَيرِكم، ثمَّ قال: إنَّ هؤلاءِ نزَلوا على حُكمِك. قال: تَقتُلُ مُقاتِلَتَهم، وتَسْبي ذُرِّيَّتَهم. قال: فقال النَّبيُّ – ﷺ –: قَضَيت بحُكمِ اللهِ، ورُبَّما قال: قَضيتَ بحُكمِ المَلِكِ)).[46]

وعن عَطيَّةَ القُرَظيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((عُرِضْتُ على رَسولِ اللهِ – ﷺ – يومَ قُرَيظةَ، فشَكُّوا فيَّ، فأمَرَ بِيَ النَّبيُّ – ﷺ – أن يَنظُروا إليَّ: هل أنبَتُّ بَعْدُ؟ فنَظَروا فلم يَجِدوني أنبَتُّ، فخَلَّى عنِّي، وألحَقَني بالسَّبْيِ)).[47]

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27).

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.

أي: وملَّككم اللهُ –أيُّها المُسلِمونَ– أرضَهم ومَساكِنَهم وجميعَ أموالِهم ممَّا غَنِمتُموه منهم.

---

(46) أخرجه البخاري (3043)، ومسلم (1768) واللفظ له.

(47) أخرجه أبو داود (4405)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (8620)، وأحمد (19421) واللفظُ له، وابن حبان في صحيحه (4780).

صحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (4405)، وقال ابنُ حجر في ((التلخيص الحبير)) (1008/3): هو على شرطِ الصَّحيحِ.

وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (4780)

وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا.

أي: وأورثَكم اللهُ أرضًا أخرى غيرَ أرضِ بني قُرَيظةَ ما وَطِئتُموها حتَّى الآنَ، ولكِنَّكم ستَملِكونَها.(48)

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بكَمالِ القُدرةِ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرتُه على توريثِ المؤمنينَ أرضَ الكافِرينَ، ونَصْرِهم عليهم.

---

(48) اختلف في الأرض التي عنى الله بقوله: ﴿وأرضـــا لم تطئوها﴾ على أقوال: الأول: أنها الروم وفارس ونحوها من البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين.

الثاني: أنها خيبر.

الثالث: أنها مكة.

الرابع: ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٩/ ٨٣) العموم في ذلك ولم يقطع بقول منها، فقال: «والصـواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر أنه أورث المؤمنين من أصـحاب رسـول الله – ﷺ – أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم، وأرضًـا لم يطئوها يومئذ ولم تكن مكة، ولا خيبر، ولا أرض فارس والروم، ولا اليمن، مما كان وطئوه يومئذ، ثم وطئوا ذلك بعد، وأورثهموه الله، وذلك كله داخل في قوله: ﴿وأرضا لم تطئوها﴾ لأنه –تعالى ذكره– لم يخصص من ذلك بعضًا دون بعض».

وبنحوه ابنُ عطية (٧/ ١١١)، حيث قال عَقِب ذكره هذه الأقوال: «ولا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء».

سورةُ الأحزابِ

الآيات (28–31)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ
مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَزِينَتَهَا: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومَركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتحسينه.

أُمَتِّعْكُنَّ: أي: أُعطِكُنَّ حُقوقَكنَّ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفَعةٍ.

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا: أي: وأُطَلِّقْكُنَّ، والسَّراحُ الجَميلُ: هو أن يكونَ طَلاقًا للسُّنَّةِ مِن غيرِ ضِرارٍ ولا مَنعِ واجبٍ لها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على إطلاقٍ.

بِفَاحِشَةٍ: الفاحِشةُ: الزِّنا، والمَعصِيةُ، والنُّشوزُ وسُوءُ الخُلُقِ، وتُطلَقُ الفاحِشةُ على كلِّ شَيءٍ مُستَقبَحٍ ومُستَشنَعٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ.

يَقْنُتْ: أي: يُطِعْ ويَستَجِبْ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دخَلَ أبو بكرٍ يَستأذِنُ على رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فوجَدَ النَّاسَ جُلوسًا ببابِه، لم يُؤذَنْ لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكرٍ فدخَلَ، ثمَّ أقبل عُمَرُ فاستأذن فأُذِنَ له، فوجَد النَّبيَّ - ﷺ - جالِسًا حَوْلَه نِساؤه، واجِمًا ساكِتًا، فقال: لأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ النَّبيَّ - ﷺ -، فقال: يا رَسولَ اللهِ، لو رأيْتَ بنت خارِجةَ سألَتْني النَّفقةَ، فقُمْتُ إليها فوجَأْتُ عُنُقَها![49] فضَحِكَ رَسولُ الله - ﷺ - وقال: هُنَّ حَوْلي كما ترى، يَسأَلْنني النَّفقةَ! فقام أبو بكرٍ إلى عائِشةَ يجَأُ عُنُقَها، فقام عُمَرُ إلى حَفصةَ يجَأُ عُنُقَها، كِلاهما يقولُ: تَسألْنَ رَسولَ اللهِ - ﷺ - ما ليس عندَه؟! فقُلْنَ: واللهِ لا نَسألُ رَسولَ الله - ﷺ - شيئًا أبدًا ليس عِندَه. ثمَّ اعتزَلَهُنَّ شَهرًا أو تِسعًا وعِشرينَ، ثمَّ نزلَتْ عليه هذه الآيةُ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا،

---

(49) فوجأتُ: أي: ضَرَبتُ عُنُقَها بكَفِّي، والوَجْأُ: الضَّربُ باليَدِ، وجاء الوَجْأُ بمعنى الدَّقِّ أيضًا.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (2122/5).

قال: فبدأ بعائِشةَ، فقال: يا عائِشةُ، إنِّي أُريدُ أن أَعرِضَ عليكِ أمرًا أُحِبُّ ألَّا تَعجَلي فيه حتَّى تَستشيري أبوَيْكِ، قالت: وما هو يا رَسولَ اللهِ؟ فتلا عليها الآيةَ، قالت: أفيكَ يا رَسولَ اللهِ أستشيرُ أبوَيَّ؟! بل أختارُ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، وأسألُك ألَّا تُخبِرَ امرأةً مِن نسائِك بالَّذي قُلتُ. قال: لا تَسألُني امرأةٌ منهُنَّ إلَّا أخبَرْتُها؛ إنَّ اللهَ لم يبعَثْني مُعَنِّتًا ولا مُتعَنِّتًا، ولكِنْ بعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا)).[50]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ التَّنعُّمَ بالحياةِ الدُّنيا وزَخارِفِها، وتَطلُبْنَ نَفَقةً لا أستطيعُها.

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ.

أي: فأقبِلْنَ أُعْطِكُنَّ ما أوجَبَه اللهُ على الرِّجالِ إذا طَلَّقوا نِساءَهم.[51]

---

(50) رواه مسلم (1478).

(51) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (84/19)، ((تفسير ابن كثير)) (401/6)، ((تفسير أبي السعود)) (100/7).

قال ابنُ جُزَي: (أصلُ «تعالَ»: أن يقولَه مَن كان في موضعٍ مرتفعٍ لِمَن في موضعٍ منخفضٍ، ثم استُعملَتْ بمعنى: أقْبِلْ، في جميعِ الأمكنةِ).

((تفسير ابن جزي)) (150/2).

قال العُلَيمي: (فَتَعَالَيْنَ: أجِبْنَ إلى ما أعرِضُ عليكُنَّ، ولم يُرِدْ حقيقةَ الإقبالِ والمجيءِ).

((تفسير العليمي)) (358/5).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: أن يُعطيَ الزَّوجُ امرأتَه حينَ يُطَلِّقُها عَطيَّةً؛ جَبرًا لخاطِرِها؛ لما يَعرِضُ لها مِنَ الانكِسارِ).

((تفسير ابن عاشور)) (316/21).

كما قال تعالى: وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ [البقرة: 236].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ [البقرة: 241].

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا.

أي: وأُطَلِّقْكنَّ طَلاقًا جميلًا كما أذِنَ اللهُ وأمَر، بلا غضَبٍ ولا سَبٍّ وشَتمٍ، ولا منْعِ حَقٍّ.

كما قال تعالى: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا [البقرة: 231].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [الطلاق: 1، 2].

وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا

(29).

وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ.

أي: وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسولَه ونَعيمَ الآخرةِ، بحيثُ تَطيبُ أنفُسُكنَّ بما يُعطيكنَّ الرَّسولُ مِن نَفَقةٍ، ولا تُطالِبْنَه بزيادةٍ.

فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا.

أي: فإنَّ اللهَ هيَّأ للمُحسِناتِ مِنكُنَّ ثَوابًا عَظيمًا، تَحتَقِرُ له الدُّنيا وزِينتُها.[52]

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30).

---

(52) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (84/19)، ((تفسير ابن عطية)) (381/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (338/15)، ((تفسير الشوكاني)) (317/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 663).

قال ابنُ العربي: (المعنى: أعطاهنَّ اللهُ بذلك ثوابًا مُتكاثِرَ الكيفيَّةِ والكَمِّيَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ -وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ [الأحزاب: 31]- وزيادةَ رِزقٍ كَريمٍ مُعَدٍّ لهنَّ).

((أحكام القرآن)) (565/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (401/6).

وقال العليمي: (و«مِنْ» للتَّبيينِ؛ لأنهَّنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسِناتٍ، فأخبَرَ بذلك عائشةَ رضي الله عنها، فاختارت رسولَ الله، ثمَّ اختارت الباقياتُ الصالحاتُ اختيارَها).

((تفسير العليمي)) (359/5).

وقال السمعاني: (والمحسِناتُ هنَّ اللَّاتي اخترنَ اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ، وجميعُ نساءِ النَّبيِّ قد اخترْنَ ذلك؛ فجميعُهنَّ محسناتٌ).

((تفسير السمعاني)) (277/4).

وقال ابن جرير: (لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ وهنَّ العاملاتُ منهُنَّ بأمرِ اللهِ، وأمرِ رسولِه).

((تفسير ابن جرير)) (84/19).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (381/4).

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ.

أي: يا أزواجَ النَّبيِّ مَن تأْتِ مِنكنَّ بفاحِشةٍ[53] ظاهِرةٍ، يُضاعَفْ لها العَذابُ مِثْلَيْ عَذابِ مَن وقَعَ في تلك الفاحِشةِ.

---

(53) قال البغوي: (بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ بمعصيةٍ ظاهِرةٍ، قيلَ: هي كقولِه عزَّ وجلَّ: لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [الزمر: 65] ، لا أنَّ منهنَّ مَن أتتْ فاحشةً.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: المرادُ بالفاحشةِ: النُّشوزُ وسوءُ الخُلُقِ).

((تفسير البغوي)) (3/635).

قيل: هي الزِّنا.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ الرازيِّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/90)، ((تفسير الرازي)) (25/166).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (2/715).

قال الرَّسْعَنِيُّ بعدَ أن حكى قولَ السُّدِّيِّ: (أظنُّ الحاملَ له على ذلك هذا القول؛ أنَّه رأى هذه اللَّفظةَ لهذا المعنى في مواضعَ مِن القرآنِ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بل سائرُ رُسلِه معصومون مِن صُحبةِ زَوجةٍ تُزَنُّ بهذه الرِّيبةِ ...

فلا وجْهَ لِنَهيِهِنَّ عمَّا لا يجوزُ وُقوعُه منهُنَّ).

((تفسير الرسعني)) (6/142).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: معصيةٌ ظاهرةٌ؛ مِن نُشوزٍ، وسُوءِ خُلُقٍ: الرسعنيُّ، والعُلَيميُّ.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (6/142)، ((تفسير العليمي)) (5/360).

قال الرسعني: (بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ: النُّشوزَ وسوءَ الخُلق.

فإن قيل: الفاحشةُ السَّيِّئةُ البليغةُ في القُبحِ، والنُّشوزُ وسوءُ الخُلقِ لا يَترقَّى إلى ذلك، فكيف سمَّاه فاحشةً؟ قلتُ: تعاظَمَ ذلك وتفاحَشَ لأجْلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكَوْنِه هو المُعامَلَ به).

((تفسير الرسعني)) (6/142).

وقال ابنُ عاشور: (الفاحشةُ: المَعصيةُ، قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ [الأعراف: 33]، وكلَّما وردَتِ الفاحشةُ في القرآنِ نَكِرةً فهي المعصيةُ، وإذا وردت مَعرِفةً فهي الزِّنا ونحوُه).

((تفسير ابن عاشور)) (21/319).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/340).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: مُبَيِّنَةٍ قراءتانِ:

1- قِراءةُ مُبَيَّنَةٍ قيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنها، فهي ظاهِرةٌ.(54)

2- قِراءةُ مُبَيِّنَةٍ قيل: المعنى: أنَّ الفاحِشةَ هي الفاعِلةُ والمُبَيِّنةُ على فاعِلِها والكاشِفةُ له. وقيل: المعنى: أنَّها ظاهِرةٌ في نَفْسِها وشَديدةُ الوُضوحِ على كَونِها فاحِشةً، فهي تُبَيِّنُ نَفْسَها.(55)

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

وقيل: هي العصيانُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ.

يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (487/3).

وقال ابنُ كثير: (هو شَرطٌ، والشَّرطُ لا يقتضي الوقوعَ، كقَولِه تعالى: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [الزمر: 65] ...

فلمَّا كانت محلَّتُهنَّ رَفيعةً ناسَب أن يجعَلَ الذَّنْبَ -لو وقع منهنَّ- مُغلَّظًا؛ صيانةً لجَنابِهنَّ وحِجابِهنَّ الرَّفيعِ).

((تفسير ابن كثير)) (408/6).

(54) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشعبةُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (248/2، 348).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 121)، ((معاني القراءات)) للأزهري (298/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 196).

(55) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (248/2، 348).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 121)، ((معاني القراءات)) للأزهري (298/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 196)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (340/15)، ((تفسير ابن عاشور)) (319/21، 320).

أي: وإنَّ مُضاعَفةَ اللهِ لِعَذابِ مَن تَفعَلُ ذلك هَيِّنٌ عليه، فلا يتعاظمُه ولا يَصعُبُ عليه.

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31).

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ.

أي: ومَن تُداوِمْ مِنكُنَّ على طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وتَعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي شَرَعها اللهُ بإخلاصٍ له سُبحانَه- نُؤتِها ثَوابَها في الآخِرةِ مِثْلَيْ ما نُعطي غَيرَها.

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا.

أي: وأعدَدْنا لها رِزقًا حَسَنًا جَميلًا، وعَيشًا في الجَنَّةِ هَنيئًا.[56]

---

(56) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (92/19)، ((البسيط)) للواحدي (232/18)، ((تفسير ابن كثير)) (408/6).

وممَّن قال بأنَّ الرزقَ الكريمَ هنا: في الجنةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال النحاس: (أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هاهنا: الجنَّةُ).

((إعراب القرآن)) (214/3).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (92/19).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالرِّزقِ الكريمِ هنا: العَطاءُ الكَثيرُ الحَسَنُ الجَميلُ، وهذا إنَّما يكونُ في الجنَّةِ).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الأحزاب)) (ص: 215).

وقيل: هو في الدُّنيا والآخرة.

وممَّن قال بذلك: البِقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (343/15).

سورةُ الأحزابِ

الآيات (32–34)

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)

غَريبُ الكَلِماتِ:

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ: أي: لا تَلِنَّ بالقولِ، والخُضوعُ بالقَولِ: تَرقيقُ الكَلامِ إذا خاطَبْنَ الرِّجالَ، وأصلُ (خضع) هنا: تطامُنٌ في الشَّيءِ.

وَقَرْنَ: أي: اثبُتْنَ واسْكُنَّ، مِنَ القَرارِ في المكانِ: بمعنى الاستِقرارِ فيه، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على التَّمَكُّنِ.

وَلَا تَبَرَّجْنَ: أي: لا تُبْرِزنَ محاسِنَكنَّ وتُظهِرْنَها، وأصلُ (برج): يدُلُّ على بُروزٍ وظُهورٍ.

الْجَاهِلِيَّةِ: الجاهِلِيَّةُ: مَنسوبةٌ إلى الجَهلِ، وهي مُتضمِّنةٌ لعدَمِ العِلمِ، أو لعَدَمِ العَمَلِ به، وأصلُ (جهل): يدُلُّ على خِلافِ العِلمِ.

الرِّجْسَ: أي: الإثمَ والقَذَرَ، والسُّوءَ والفَحشاءَ، وأصلُ (رجس): يدُلُّ على اختِلاطٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32).

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ.

أي: يا أزواجَ النَّبِيِّ لَستُنَّ مُساوياتٍ أو مُشابِهاتٍ لأيِّ امرأةٍ أخرى مِنَ النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرفِ، إنِ اتَّقيتُنَّ اللهَ بفِعلِ أوامِره، واجتِنابِ نَواهيه.

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

أي: فلا تُلِنَّ كلامَكنَّ للرِّجالِ على وَجهٍ فيه خُضوعٌ وانكِسارٌ لهم، فيَطمَعَ فِيكُنَّ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ المحَرَّمةِ، وإرادةُ الفُجورِ.

وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا.

أي: وتَكلَّمْنَ بكَلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ، بلا خُشونةٍ وغِلظةٍ، ولا بَذاءةٍ.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33).

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ.

أي: والْزَمْنَ –يا نِساءَ النَّبيِّ– بُيوتَكنَّ، فلا تَخرُجْنَ منها لِغَيرِ حاجةٍ.[57]

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خَرَجَت سَوْدةُ بعدَما ضُرِبَ الحِجابُ لحاجتِها، وكانت امرأةً جَسيمةً[58] لا تخفَى على مَن يَعرِفُها، فرآها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فقال: يا سَوْدةُ، أمَا واللهِ ما تَخفَيْنَ علينا؛ فانظُري كيف تَخرُجينَ! قالت: فانكفَأَتْ[59] راجِعةً، ورَسولُ الله – ﷺ – في بَيتي، وإنَّه لَيَتعشَّى وفي

---

(57) قيل: يَدخُلُ في هذا الخِطابِ لِنساءِ النَّبيِّ –صلَّى الله عليه وسلَّم– غيرُهنَّ مِن النِّساءِ.

وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (179/14).

وقيل: وُجوبُ هذا الأمرِ خاصٌّ بنساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور، وقال: (هذا الحُكمُ وُجوبٌ على أمَّهاتِ المؤمنينَ، وهو كمالٌ لسائرِ النِّساءِ).

((تفسير ابن عاشور)) (10/22).

قيل: إنَّ الإضافةَ في قولِه تعالى: بُيُوتِكُنَّ أفادت أنَّها مِلكٌ لهنَّ.

وقيل: الإضافةُ للاختصاصِ، وليس للتَّمليكِ، وإنَّما أُضيفَت البيوتِ إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها.

يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (612/3، 613)، ((تفسير القرطبي)) (154/18)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/22)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة الأحزاب)) (ص: 240).

(58) جَسيمةً: أي: عَظيمةَ الجِسْمِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (150/14).

(59) فانكَفَأتْ: أي: انقلَبَت وانصرَفَت.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3783/9).

يَدِه عَرْقٌ،[60] فدخَلَتْ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي خَرَجتُ لِبَعضِ حاجَتي، فقال لي عُمَرُ كذا وكذا، قالت: فأوحى اللهُ إليه ثمَّ رُفِعَ عنه، وإنَّ العَرْقَ في يَدِه ما وضَعَه، فقال: إنَّه قد أُذِنَ لكُنَّ أن تَخرُجْنَ لحاجَتِكُنَّ)).[61]

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَقَرْنَ قِراءتانِ:

1- قِراءةُ وَقَرْنَ بمعنى الاستِقرارِ، أي: واقْرَرْنَ في بُيوتكنَّ.

2- قِراءةُ وَقِرْنَ وفي معناها وجهان؛ الأوَّلُ: كُنَّ أهلَ وَقارٍ وسَكينةٍ، والثَّاني: القَرارُ في البُيوتِ، وعلى هذا الوجهِ تَكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ.

وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى.

أي: ولا تُظْهِرْنَ زِينَتَكنَّ وتُبْرِزْنَ مَحاسِنَكُنَّ للرِّجالِ، كعادةِ النِّساءِ في الجاهليَّةِ قبْلَ الإسلامِ.[62]

---

(60) عَرْقٌ: هو العَظمُ الَّذي عليه بقيَّةُ لحمٍ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (151/14).

(61) رواه البخاري (4795) واللفظ له، ومسلم (2170).

(62) اختُلِف في زمن الجاهلية الأولى على ستّة أقوال: أولها: أنها ما بين آدم ونوح.
والثاني: أنها ما بين نوح وإبراهيم.
والثالث: أنها ما بين نوح وإدريس.
والرابع: أنها زمن داود وسليمان.
والخامس: أنها ما بين موسى وعيسى.

وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ.

أي: وأدِّينَ الصَّلاةَ[63] للهِ على الوَجهِ المُستقيمِ، وآتِينَ الزَّكاةَ أهْلَها المُستحِقِّينَ لها، كما أمَرَ اللهُ تعالى.

وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: وأطِعْنَ اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهيِهما.

والسادس: أنها ما بين عيسى ومحمد.

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٩/ ٩٩ - ١٠٠) إلى أنّ كلَّ تلك الأقوال يحتملها ظاهر التنزيل.

وذَهَبَ ابنُ عطية (٧/ ١١٧) مستندًا إلى دلالة العقل إلى أنّها الجاهلية التي أدركها أزواج النبيّ - ﷺ -، فقال: «الذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لَحِقْنَها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وكلُّ أمر النساء دون حجبة».

ثم بَيَّنَ أنّ وصْفَ الجاهليّة بـ ﴿الأُولى﴾ لا يعني أنّ هناك جاهلية أُخرى، فقال: «وجعلها أُولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى أنّ ثَمَّ جاهلية أخرى، وقد مَرَّ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهلي في الشعراء، وقال ابن عباس -في البخاري-: سمعت أبي في الجاهلية يقول ...

إلى غير هذا».

(63) قيل: المرادُ: الصَّلَواتُ المفروضةُ.

وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن جرير.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (716/2)، ((تفسير ابن جرير)) (100/19، 101).

وقيل: المرادُ: الفرائضُ والنَّوافِلُ.

وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (345/15)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: 230).

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

أي: إنَّما يُريدُ اللهُ[64] أن يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ –يا أهلَ بَيتِ مُحمَّدٍ– [65]بما يأمُرُكم ويَنهاكم، ويُحِبُّ أن يُطَهِّرَكم تَطهيرًا مِن دنَسِ السَّيِّئاتِ.[66]

---

(64) والمرادُ بالإرداةِ هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ، لا الكَونيَّةُ كما يزعُمُ الرَّافضةُ، ويَدَّعون العِصمةَ لأئمَّتِهم بِناءً على ذلك! يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (7/71، 72)، ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (6/33).

(65) قال ابنُ كثير: «هذا نصٌّ في دخول أزواج النبي – ﷺ – في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا؛ إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح».

وذكر (١١/ ١٦٠) أنّ سياق الكلام معهن.

(66) قال ابنُ تيميَّة: (سياقُ الآيةِ يقتضي أنَّه يريدُ لِيُذهِبَ عنهم الرِّجسَ –الَّذي هو الخَبَثُ؛ كالفواحِشِ–، ويُطَهِّرَهم تطهيرًا مِن الفواحِشِ وغيرِها مِن الذُّنوبِ...

والتَّطهيرُ عن الذَّنبِ: إمَّا بألَّا يَفعَلَه العَبدُ، وإمَّا بأن يتوبَ منه...

وبالجُملةِ: لفظُ «الرِّجسِ» أصلُه القَذَرُ، ويرادُ به الشِّركُ...

ويرادُ به الخبائثُ المحَرَّمةُ؛ كالمطعوماتِ والمشروباتِ...

ولفظُ «الرجس» عامٌّ يقتضي أنَّ اللهَ يريدُ أن يُذهِبَ جميعَ الرِّجسِ...

وقد يكونُ مِن تمامِ تَطهيرِهم صيانتُهم عن الصَّدَقةِ الَّتي هي أوساخُ النَّاسِ...

وبالجُملةِ فالتَّطهيرُ الَّذي أراده اللهُ، والَّذي دعا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليس هو العِصمةَ، بالاتِّفاقِ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ عندَهم لا مَعصومَ إلَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

والشِّيعةُ يقولونَ: لا مَعصومَ غيرُ النَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–، والإمامِ).

((منهاج السنة النبوية)) (7/79–83).

عن أمِّ المؤمِنينَ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خرجَ النَّبيُّ – ﷺ – غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ[67] مِن شَعَرٍ أسْوَدَ، فجاء الحَسَنُ بنُ عَليٍّ فأدخَلَه، ثمَّ جاء الحُسَينُ فدخَلَ معه، ثمَّ جاءت فاطِمةُ فأدخَلَها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخَلَه، ثمَّ قال: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)).[68]

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34).

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ.

أي: واذكُرْنَ –يا أزواجَ النَّبِيِّ– ما يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِن آياتِ القُرآنِ، والسُّنَّةِ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا باللُّطفِ، المتضمَّنِ عِلمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ، وإيصالَه الرَّحمةَ بالطُّرُقِ الخفيَّةِ، ومِن لُطفِه سَوقُ الخَيرِ والنَّفعِ إلى نِساءِ النَّبيِّ، وحِفظُهنَّ مِن الشُّرورِ، وإكرامُهنَّ وبُلوغُهنَّ مَنزلةً عاليةً؛ وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالخِبرةِ، فهو العالِمُ بالأسرارِ والخفايا، ومن خِبرتِه عِلمُه بما يَنفَعُ نِساءَ النَّبيِّ، وعِلمُه بهِنَّ وبحالِهنَّ، فاختارَهنَّ أزواجًا لِرَسولِه.[69]

---

(67) مِرْطٌ مُرَحَّلٌ: كِساءُ خَزٍّ أو صُوفٍ، منقوشٌ عليه صُوَرُ رِحالِ الإبِلِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3962/9).

(68) رواه مسلم (2424).

(69) بيَّن ابنُ عطية (٧/ ١١٩) أن اتصـــال هذه الآية بالتي قبلها يعطي أن ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نســاؤه، وأنها على قول الجمهور ابتداء مخاطبة لأزواج النبي – ﷺ –، وذكر أن لفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصـــدين كلاهما موعظة وتعديد نعمة: الأول: أن يريد: ﴿واذكرن﴾ أي: تذكَّرْنه واقدرنه قدْره وفكِّرْن في أن من هذه حاله ينبغي أن يحسّن أفعاله.

الثاني: أن يريد: ﴿واذْكُرْنَ﴾ بمعنى: احفظن واقرأن وأَلزِمْنه الألســـنة، فكأنه يقول: واحفظن أوامر الله ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مؤديكن إلى الاستقامة.

وبيَّن أن الحكمة: هي سنة الله على لسان نبيه - ﷺ - دون أن تكون في قرآن متلوٍّ.

ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن تكون وصفًا للآيات».

سورةُ الأحزابِ

الآيتان (35–36)

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ
اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَالْقَانِتِينَ: أي: الخاضِعين، المُداوِمينَ على طاعةِ الله، والقُنوتُ: دوامُ الطَّاعة ولُزومُها مع الخُضوعِ؛ وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ، ثمَّ سُمِّيَ كلُّ استِقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قُنوتًا.

وَالْخَاشِعِينَ: الخاشعُ: هو المطيعُ المتواضِعُ الخائِفُ، والخُشوعِ: التَّواضُعُ والتَّذلُّلُ والاستِكانةُ، وأصلُ الخشوعِ في اللُّغةِ: السُّكونُ.

قَضَى: أي: حكَم، والقضَاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا، وأصلُه: القَطْعُ والفَصْلُ، يُقالُ: قضَى يَقضي قَضاءً فهو قاضٍ: إذا حكَم وفَصَل، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه.

الْخِيَرَةُ: أي: الاختيارُ، وهو ما يُختارُ ويُصْطفَى، وأصلُ (خير): يدُلُّ على العَطفِ والمَيلِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: (يغزو الرِّجالُ ولا تغزو النِّساءُ! وإنَّما لنا نِصْفُ الميراثِ، فأنزَل اللهُ: وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ [النساء: 32])، قال مجاهِدٌ: (وأنزل فيها: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وكانت أمُّ سَلَمةَ أوَّلَ ظَعينةٍ[70] قَدِمَت المدينةَ مُهاجِرةً).[71]

وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّها أتَتِ النَّبيَّ – ﷺ – فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلَّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنزَلت هذه الآيةُ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الآيةَ)).[72]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ.

أي: إنِّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُنقادينَ له بطاعتِه.

---

(70) قيل للمرأةِ: «ظعينَة»؛ لأنَّها تَظْعَنُ معَ الزَّوجِ حيثُ ما ظَعَن، أو تُحْمَلُ على الرَّاحلةِ إذا ظَعَنَتْ، وقيل: هي المرأةُ في الهودجِ، ثُمَّ قِيل للمرأةِ وحدَها والهودَج وحدَه، مِن: ظَعَن إذا سارَ.

يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (299/8).

(71) أخرجه الترمذي (3022) واللفظ له، وأحمد (26736).

حَسَّنه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (130/6)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرَ)) (23/2)، وصَحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (495/1)، وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3022).

(72) أخرجه الترمذي (3211) واللفظ له، والطبراني (31/25) (51)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (7993).

قال الترمذي: حسَنٌ غريب.

وحَسَّنه ابن حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرَ)) (24/2)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3211).

وفي حديثِ جِبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: يا مُحمَّدُ، أخبِرْني عن الإسلامِ. فقال رسولُ الله – ﷺ –: الإسلامُ أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ – ﷺ –، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استطَعْتَ إليه سبيلًا، قال: صَدَقْتَ)).(73)

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

أي: والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه.

كما قال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ [البقرة: 285].

وفي حديثِ جبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه: ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: فأخبِرْني عن الإيمانِ، قال: أن تؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، قال: صَدَقْتَ)).(74)

وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ.

أي: والمُطيعينَ والمُطيعاتِ لله فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ.

---

(73) رواه مسلم (8).
(74) رواه مسلم (8).

كما قال تعالى: وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ [البقرة: 238].

وقال سُبحانَه: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران: 43].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزمر: 9].

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ.

أي: والصَّادقين والصَّادقاتِ في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللهِ ومع عِبادِه.

كما قال تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقرة: 177].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات: 15].

وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ.

أي: والصَّابِرينَ والصَّابراتِ على التَّمسُّكِ بالدِّينِ وفِعلِ الطَّاعاتِ، وتَرِكِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقَّاتِ.

وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ.

أي: والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم.

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ.

أي: والمؤدِّينَ والمؤدِّياتِ الصَّدَقاتِ.

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ.

أي: والمتعبِّدينَ والمتعبِّداتِ للهِ تعالى بالصِّيامِ.

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ.

أي: والحافِظينَ فُروجَهم عمَّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه إلَّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلَّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً.[75]

---

(75) قال ابن عطيَّةَ: (حِفظُ الفَرْجِ هو: مِنَ الزِّنا وشبهِه، وتدخُلُ مع ذلك الصِّيانةُ مِن جميعِ ما يؤدِّي إلى الزِّنا أو هو في طريقِه). ((تفسير ابن عطية)) (385/4).

وقال الشنقيطي: (ويدخُلُ في حِفظِ الفَرْجِ: حِفظُه مِن الزِّنا، واللِّواطِ، والمُساحَقةِ، وحِفظُه مِن الإبداءِ للنَّاسِ والانكشافِ لهم).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [المؤمنون: 5 – 7].

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات.

أي: والذَّاكِرينَ والذَّاكراتِ اللهَ ذِكرًا كثيرًا.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 191].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الأحزاب: 41، 42].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله – ﷺ – يَسيرُ في طَريقِ مَكَّةَ، فمرَّ على جَبلٍ يُقال له: جُمْدانُ، فقال: سيروا، هذا جُمْدانُ، سَبَق المُفَرِّدونَ،(76) قالوا: وما المفَرِّدونَ يا رَسولَ الله؟ قال: الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ)).(77)

((أضواء البيان)) (506/5).

(76) المُفَرِّدونَ: أي: المميَّزونَ أنفُسَـــهم وأحوالَهم عن أقرانِهم؛ بنَيلِ الزُّلفى، والعُروجِ إلى الدَّرَجاتِ العلى؛ بأن جَعَلوا ربَّهم فردًا بالذِّكرِ، وتركوا ذِكرَ ما سِواه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (1540/4).

(77) رواه مسلم (2676).

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

أي: أعدَّ اللهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ.

أي: لا يَصِحُّ ولا ينبغي شرعًا لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورسولُه حُكمًا: أن يختاروا غيرَ ما اختاره اللهُ ورَسولُه، فيَعصوهما.

كما قال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 65].

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

أي: ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولَه في أيّ أمرٍ أو نَهيٍ، فقد ضَلَّ عن طريقِ الحَقّ ضَلالًا واضِحًا لا خفاءَ فيه.

كما قال تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النور: 54].

سورةُ الأحزابِ

الآيات (37–40)

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَطَرًا: أي: حاجةً، وقَضاءُ الوَطَرِ: بُلوغُ مُنتهَى ما في النَّفْسِ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: قضَى وطَرًا منها: إذا بلَغ ما أراد مِن حاجتِه فيها.

أَدْعِيَائِهِمْ: أي: الَّذين تَبَنَّوهم، وأصلُ (دعو): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ بصَوتٍ.

حَرَجٍ: أي: إثمٍ وضِيقٍ، وأصلُ الحَرَجِ: الضِّيقُ، وأصْلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه.

فَرَضَ: أي: أحَلَّ، والفَرْضُ: قطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، وأصلُ (فرض): يدُلُّ على تأثيرٍ في شَيءٍ.

سُنَّةَ اللَّهِ: السُّنَّةُ: الطَّريقةُ المُعتادةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَريانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ.

خَلَوْا: أي: مَضَوا وذَهَبوا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ.

حَسِيبًا: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدِرًا، وعالِمًا ومحاسِبًا، ومنه: أحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37).

سببُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (أنَّ هذه الآيَةَ: وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ نزلَتْ في شأنِ زَينبَ بِنتِ جَحشٍ وزَيدِ بنِ حارِثةَ).[78]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ.

أي: واذكُرْ–يا محمَّدُ– حينَ تقولُ لِزَيدِ بنِ حارِثةَ الَّذي أنعَمَ اللهُ عليه بالهِدايةِ إلى الإسلامِ، وأنعَمْتَ عليه –يا محمَّدُ– بالعِتقِ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ.

---

(78) رواه البخاري (4787).
قال ابنُ حجر: (لم تختلِفِ الرِّواياتُ أنَّها نزلت في قِصَّةِ زَيدِ بنِ حارِثةَ وزَينبَ بنتِ جَحشٍ).
((فتح الباري)) (523/8).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لو كان محمَّدٌ – ﷺ – كاتمًا شيئًا ممَّا أُنزِل عليه، لَكتَمَ هذه الآيةَ: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ).[79]

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ.

أي: لا تُطَلِّقِ امرأتَك، واصبِرْ على عِشْرتِها، واتَّقِ اللهَ فيها.

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.

أي: وتُخفي –يا محمَّدُ– في قَلبِك ما أطلَعَك اللهُ عليه مِن أنَّ زينبَ ستَكونُ مِن أزواجِك بعدَ مُفارَقةِ زيدٍ لها![80]

---

(79) رواه مسلم (177).

(80) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ على قولين: أولهما: أن الذي أخفاه في نفسه ميله إليها، وحبه لفراق زيد لها؛ ليتزوجها إن طلقها.

وهذا قول قتادة، وابن زيد، ومقاتل، وغيرهم.

والثاني: أن الذي أخفاه في نفسه أنّ الله أعلمه أنها ستكون مِن أزواجه – ﷺ –.

وهذا قول عليّ بن الحسين، والسّدّيّ.

واختار ابنُ جرير (١٩/ ١١٥) القولَ الأول مستندًا إلى سبب النزول، وأقوال أهل التأويل.

ويظهر من كلام ابن كثير (١١/ ١٧١ – ١٧٢) ميله إلى القول الثاني.

ورجَّحَ ابن القيم (٢/ ٣٣٠ – ٣٣١) القولَ الثانيَ، وانتَقَدَ القولَ الأولَ، مستندًا إلى الدلالات العقلية، والسياق، فقال: «أما ما زعمه بعض مَن لم يقدر رسول الله – ﷺ – حقَّ قدره أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها، فقال: «سبحان مقلب القلوب».

وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: «أمسكها».

وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ.

أي: وتَخشَى -يا محمَّدُ- أن يقولَ النَّاسُ: إنَّك تَنهَى عن التَّزوُّجِ بنِساءِ الأبناءِ، ثمَّ تتزوَّجُ امرأةَ زَيدٍ الَّذي تبنَّيْتَه مِن قَبْلُ. واللهُ أَولى بأن تخشاه! فلا تُبالِ بالنَّاسِ فيما أحَلَّ اللهُ لك.

حتى أنزل الله عليه: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾، فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنَّف بعضهم كتابًا في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء، وذكر هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله - ﷺ - إلى ما برأه الله منه؛ فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله - ﷺ - قد تبنّاه، وكان يُدْعى: زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفُّع عليه، فشاور رسول الله - ﷺ - في طلاقها، فقال له رسول الله - ﷺ -: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى مِن قالة الناس أنه تزوَّج امرأة ابنه؛ لأن زيدًا كان يُدْعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يُعَدِّد فيها نعمَه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرَّج ما أحلَّه له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها؛ لتقتدي أمته به في ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ [النساء: ٢٣]، وقال في هذه السورة: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ [الأحزاب: ٤].

فتأمل هذا الذب عن رسول الله - ﷺ -، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله - ﷺ - يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة - رضي الله عنها -، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صحَّ أنه قال: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا».

وفي لفظ: «وإنّ صاحبكم خليل الرحمن»».

فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا.

أي: فلمَّا أتمَّ زَيدُ بنُ حارِثةَ حاجَتَه مِنِ امرأتِه زَينبَ بنتِ جَحشٍ، وفرَغ منها وطَلَّقها؛ زَوَّجْناك بها –يا محمَّدُ.

لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا.

أي: زوَّجناك –يا محمَّدُ– بزَينبَ امرأةِ زَيدٍ؛ لِئَلَّا يبقَى ضِيقٌ ومَشقَّةٌ على المؤمِنينَ في تزَوُّجِهم بمُطلَّقاتِ مَن تَبنَّوهم إذا قَضَوا مِنهنَّ حاجاتِهم، فلم تبقَ لديهم رغبةٌ فيهنَّ وفارَقوهنَّ.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

أي: وكان ما قَضاه اللهُ كائنًا لا محالةَ، ومِمَّا قضى اللهُ: أن يتزوَّجَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بزَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها.

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38).

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ.

أي: ما يَنبغي أن يكونَ على النَّبيِّ إثمٌ أو ضِيقٌ ممَّا قَسَم اللهُ له مِنَ المُباحاتِ.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ.

أي: سَنَّ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ - ﷺ - في التَّوسعةِ عليه في النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ؛ فهذه عادةُ الله فيهم أن يَنالوا ما أحَلَّ اللهُ لهم.(81)

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا.

أي: وكان ما قدَّره اللهُ وقَضاه كائنًا لا مَحالةَ، ولا بُدَّ مِن وُقوعِه.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39).

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ.

أي: سُنَّةَ اللهِ في إباحةِ ما أباحه للَّذينَ مَضَوا مِنَ الرُّسَلِ الَّذين يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى أمَمِهم، ويؤَدُّونَها إليهم بأمانةٍ، فيُخبِرونَهم بكُلِّ ما أُمِروا به، ويَخشَونَ اللهَ، ويَخافونَ عِقابَه إن تَرَكوا تبليغَ الحَقِّ.

---

(81) قال الثعلبي: (قيل: الإشارةُ بالسُّنَّةِ إلى النِّكاحِ وأنَّه مِن سُنَّةِ الأنبياءِ.
وقيل: إلى كثرةِ الأزواجِ).
((تفسير الثعلبي)) (8/49).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/119)، ((تفسير القرطبي)) (14/195).
وقال الرَّسْعَنِيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ في قولِه تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ: أي: سَنَّ اللهُ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوسعةِ عليه في بابِ النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ).
((تفسير الرسعني)) (6/166).
وقال السعدي: (هذا دَفْعٌ لِطَعنِ مَن طَعَن في الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في كثرةِ أزواجِه، وأنَّه طَعنٌ بما لا مَطعَنَ فيه، فقال: مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ أي: إثمٍ وذَنْبٍ.
فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي: قَدَّر له مِنَ الزَّوجاتِ؛ فإنَّ هذا قد أباحه اللهُ للأنبياءِ قَبْلَه؛ ولهذا قال: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ).
((تفسير السعدي)) (ص: 666).

وَلَا يَخْشَوْنَ أَحدًا إِلَّا اللَّه.

أي: ولا يخشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ وَحْدَه، فلا يَمنَعُهم أحَدٌ أو شَيءٌ عن تبليغِ الحَقّ.

كما قال تعالى: فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا [المائدة: 44].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [التوبة: 18].

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا.

أي: وكفى باللهِ حافِظًا لأعمالِ خَلْقِه ومحاسِبًا لهم، وكافِيًا لعبادِه، وناصِرًا ومُعِينًا وحافِظًا.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40).

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ.

أي: ليس محمَّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكم، لا زَيدِ بنِ حارِثةَ ولا غيرِه.(82)

---

(82) قال ابنُ عطية (٧/ ١٢٥): «أذهب الله تعالى في هذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم مِن بعد تزويج رسول الله – ﷺ – زينب زوجة دَعِيِّه زيد بن حارثة؛ لأنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك البُنُوَّة، وأعلم أن محمدًا لم يكن في حقيقة أمره أبا أحد من رجال المعاصرين له، ولم يقصد بهذه الآية أن النبي – ﷺ – لم يكن له ولد، فيحتاج إلى الاحتجاج بأمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا، ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين، ومَن احتجَّ بذلك فإنه تأوَّل نفي البُنُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قصد بها».

وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ.

أي: ولكِنَّ مُحَمَّدًا هو رَسولُ اللهِ، وهو آخِرُ النَّبيّينَ، فلا نَبيَّ بعْدَه.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ مِن قَبْلِي كمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا، فأحسَنَه وأجمَلَه، إلَّا مَوضِعَ لَبِنةٍ مِن زاويةٍ، فجعَلَ النَّاسُ يَطوفونَ به، ويَعجَبونَ له، ويقولونُ: هلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ! قال: فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتَمُ النَّبيّينَ)).[83]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلَّما هلَكَ نَبيٌّ خلَفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بَعدي)).[84]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطِيتُ جوامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّت لِيَ الغنائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طَهورًا ومَسجِدًا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلقِ كافَّةً، وخُتِمَ بِيَ النَّبيُّونَ)).[85]

---

(83) رواه البخاري (3535) واللفظ له، ومسلم (2286).

(84) رواه البخاري (3455)، ومسلم (1842).

(85) رواه مسلم (523).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ خَاتَمَ بفَتحِ التَّاءِ، بمعنى: أنَّه آخِرُ النَّبيِّينَ فلا نبيَّ بعْدَه. وقيل: بمعنى الطَّابَعِ. وقيل: مأخوذٌ مِن الخاتَمِ الملبوسِ؛ لأنَّ مُحَمَّدًا كالخاتَمِ للأنبياءِ، يَتزيَّنون بكَونه منهم.(86)

2- قِراءةُ خَاتِمَ بكَسرِ التَّاءِ، اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّ مُحَمَّدًا خَتَم النَّبيِّينَ بنَفْسِه، فطُبِعَ على النُّبُوَّةِ فلا تُفتَحُ لأحدٍ بعْدَه. وقيل: خَتَم النَّبيِّينَ بمعنى: جاء آخِرَهم. وقيل: كَسرُ التَّاءِ وفَتحُها لُغتانِ بمعنًى واحدٍ.(87)

---

(86) قرأ بها عاصمٌ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/348).
ويُنظرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (19/122، 123)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 290)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/284)، ((تفسير الزمخشري)) (3/544)، ((تفسير الشوكاني)) (4/329).

(87) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/348).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (19/121، 122)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 290)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/284)، ((تفسير ابن عطية)) (4/388)، ((تفسير الشوكاني)) (4/329).

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه، ومِن ذلك عِلمُه بمَن يَصلُحُ منهم لرِسالتِه، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الأحكامِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [آل عمران: 5].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: 124].

سورةُ الأحزابِ

الآيات (41–44)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44)

غَريبُ الكَلِماتِ:

بُكْرَةً: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه.

وَأَصِيلًا: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُ (أصل) هنا: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشِيِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41).

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كثيرًا في جميعِ أوقاتِكم.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ [آل عمران: 191].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ [الأعراف: 205].

وقال تبارك وتعالى: وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الجمعة: 10].

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42).

أي: ونَزِّهوا اللهَ عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، بالتَّسبيحِ أوَّلَ النَّهارِ بينَ الصُّبحِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وآخِرَ النَّهارِ بينَ العَصرِ وغُروبِ الشَّمسِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((مَن قال حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه مئةَ مَرَّةٍ، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضَلَ ممَّا جاء به، إلَّا أحدٌ قال مِثلَ ما قال، أو زاد عليه)).(88)

---

(88) رواه مسلم (2692).

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43).

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

أي: هو الَّذي يُثني عليكم، ومَلائِكتُه يَدْعُونَ ويَستَغفِرونَ لكم؛ فيُخرِجُكم اللهُ -بسَبَبِ صَلاتِه وصلاةِ ملائكتِه- مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّلالِ والكُفرِ والعِصيانِ، إلى نورِ العِلمِ والطَّاعةِ والإيمانِ.[89]

---

(89) قال ابن كثير (١١/ ١٨٣): «أما الصلاة من الملائكة فبمعنى: الدعاء للناس، والاستغفار».

وبنحوه ابنُ جرير (١٩/ ١٢٣)، وابنُ عطية (٧/ ١٢٦).

المشهور في تأويل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ قولان: أولهما: أنّ معنى صلاة الله على عبده: ثناؤه عليه.

والثاني: أنّ معنى صلاة الله على عبده: رحمته إياه.

وقد ذكرهما ابنُ كثير (١١/ ١٨٣)، فقال: «والصلاة من الله: ثناؤه على العبد عند الملائكة.

حكاه البخاري عن أبي العالية، ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة.

وقد يقال: لا منافاة بين القولين».

وجمع بينهما ابنُ عطية (٧/ ١٢٦)، فقال: «صلاة الله -تبارك وتعالى- على العبيد هي رحمته لهم، وبركته لديهم، ونشره إلينا الجميل».

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٩/ ١٢٣) إلى القول الأول مستندًا إلى أقوال السلف.

ورجَّحَه ابنُ القيم (٢/ ٣٣٢ - ٣٣٥ بتصرف) بعد أن ذكر قولًا ثالثًا، مفاده: أنّ معنى صلاة الله على عبده: مغفرته له.

وضَعَّفَ القولين الثاني، والثالث، فقال: «هما ضعيفان لوجوه: أحدها: أن الله سبحانه فرّق بين صلاته على عباده، ورحمته، فقال: ﴿وبَشِّرِ الصّابِرِينَ الَّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إنّا لِلَّهِ وإنّا إلَيْهِ راجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، فعطف الرحمة على الصلاة، فاقتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف.

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيرًا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن.

كما قال تعالى: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة: 152].

وقال سُبحانَه: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [غافر: 7 – 9].

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين، واختلف السلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء؛ فَعُلِم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال:» اللهم ارحم محمدًا وآل محمد «، وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورقَّ عليه أنه صلّى عليه، ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يُبغضه ويُعاديه، فيجد في قلبه له رحمة، ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لا بد فيها من كلام، فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه، وتنويه به، وإشادة لمحاسنه ومافيه وذكره.

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرّق بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه، وثناء ملائكته عليه.

ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معًا؛ لأن في ذلك محاذير متعددة: أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل.

الثاني: أن الأكثرين لا يُجَوِّزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز.

فإذا كان معنى الصلاة: هو الثناء على الرسول والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن لفظ الصلاة في الآية مشتركًا محمولًا على معنييه، بل يكون مستعملًا في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ».

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((الملائِكةُ يُصَلُّونَ على أحَدِكم ما دام في مُجلِسِه الَّذي صلَّى فيه؛ يقولونَ: اللَّهُمَّ ارحَمْه، اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ تُبْ عليه، ما لم يُؤذِ فيه، ما لم يُحدِثْ فيه))[90]. [91]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((إذا خرَجَتْ رُوحُ المؤمِنِ تلقَّاها ملَكانِ يُصعِدانِها، ويقولُ أهلُ السَّماءِ: رُوحٌ طَيِّبةٌ جاءت مِن قِبَلِ الأرضِ، صلَّى اللهُ عليكِ وعلى جَسَدٍ كُنتِ تَعمُرينَه)).[92]

وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ بعِبادِه المُؤمِنينَ رَحيمٌ؛ يهديهم في الدُّنيا، ويَلطُفُ بهم، ولا يُعَذِّبُهم في الآخِرةِ، ويُثيبُهم.

عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النَّبيِّ – ﷺ – سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ مِن السَّبيِ قد تحلَّبَ[93] ثَدْيُها تَسْقي، إذا وجدَت صَبِيًّا في السَّبيِ أخذَتْه فألصَقَتْه ببطنِها وأرضعَتْه، فقال لنا النَّبيُّ –

---

(90) ما لم يُحدِثْ فيه: أي: ما لم يأتِ بناقضٍ للوُضوءِ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (459/1).
(91) رواه البخاري (2119)، ومسلم (649) (459/1) واللفظ له.
(92) رواه مسلم (2872).
(93) تحلَّبَ: أي: تهيَّأَ لأن يحلب.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (430/10).

ﷺ -: أترَونَ[94] هذه طارِحةً ولَدَها في النَّارِ؟! قُلنا: لا، وهي تقدِرُ على ألَّا تَطرَحَه، فقال: للهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بوَلَدِها)).[95]

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44).

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ.

أي: تحيَّةُ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ حينَ يَلقَونَ ربَّهم: سلامٌ، فيُسلِّمُ اللهُ عليهم، ويُسلِّمُهم مِن الآفاتِ.[96]

كما قال تعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس: 58].

وقال سُبحانَه: دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [يونس: 10].

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا.

أي: وأعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ أجرًا حَسَنًا نفيسًا.

---

(94) أترَونَ: أي: أتظنُّون.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (431/10).

(95) رواه البخاري (5999) واللفظ له، ومسلم (2754).

(96) قال ابنُ كثير (١١/ ١٨٤) مستندًا إلى النظائر: «الظاهر أن المراد -والله أعلم- ﴿تحيتهم﴾ أي: مِن الله تعالى ﴿يوم يلقونه سلام﴾ أي: يوم يسلم عليهم، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]».

سورةُ الأحزابِ

الآيات (45–48)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَنَذِيرًا: أي: محذِّرًا ومخوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ.

وَسِرَاجًا: أي: ضِياءً وهادِيًا، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسنِ والزِّينةِ.

فَضْلًا: أي: ثوابًا وأجرًا، أو: ما تفضَّل به عليهم زيادةً على الثَّوابِ، والفضلُ: العطاءُ الَّذي يَزيدُه المُعطي زيادةً على العَطيَّةِ، وكلُّ عَطيَّةٍ لا تَلزمُ مَن يُعطِي يُقال لها: فضْلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ، وأصلُ (فضل): يدُلُّ على زيادةٍ في شَيءٍ.

وَكِيلًا: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرَّجُلِ في مالِه هو الَّذي كفَلَه له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45).

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا[97] ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا بالعَذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن خالَفك وعصَى أمرَك.

---

(97) قال الماوَرْديُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الفتحِ الآية (8): (قَولُه عزَّ وجَلَّ: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: شاهِدًا على أمَّتِك بالبلاغِ.

قاله قَتادةُ.

الثَّاني: شاهِدًا على أمَّتِك بأعمالِهم مِن طاعةٍ أو معصيةٍ.

الثَّالثُ: مُبَيِّنًا ما أرسَلْناك به إليهم).

((تفسير الماوردي)) (312/5).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ: شاهِدٌ على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (499/3)، ((تفسير ابن جرير)) (125/19)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (231/4)، ((تفسير السمرقندي)) (65/3)، ((تفسير السمعاني)) (293/4).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: شاهِدٌ على أُمَّتِه الَّذين بُعِث إليهم، وعلى تكذيبِهم وتصديقِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (546/3)، ((تفسير البيضاوي)) (234/4)، ((تفسير النسفي)) (36/3)، ((تفسير الشوكاني)) (331/4).

قال السعدي: (شاهِدًا على أمَّتِه بما عمِلوه، مِن خيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالى: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143]، فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41]؛ فهو صلَّى الله عليه وسلَّمَ شاهدٌ عدلٌ مقبولٌ).

((تفسير السعدي)) (ص: 667).

وقال أبو السعود: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا على مَن بُعثتَ إليهم؛ تُراقِبُ أحوالَهم، وتُشاهِدُ أعمالَهم، وتتحمَّلُ منهم الشَّهادةَ بما صدرَ عنهم مِن التَّصديقِ والتَّكذيبِ وسائرِ ما هُم عليه مِن الهدى والضَّلالِ، وتُؤدِّيها يومَ القيامةِ أداءً مقبولًا).

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقِيتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قُلتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رَسولِ اللهِ - ﷺ - في التَّوراةِ. قال: (أجَلْ، واللهِ إنَّه لَموصوفٌ في التَّوراةِ ببَعضِ صِفتِه في القُرآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وحِرزًا للأُمِّيِّينَ،[98] أنت عَبدي ورَسولي، سَمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ،[99] ولا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يعفو ويَغفِرُ، ولن يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا).[100]

((تفسير أبي السعود)) (107/7).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ لله بالوحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيرُه، وعلى النَّاسِ بأعمالِهم يومَ القيامةِ.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (439/6).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ على أمَّتِك بالتَّبليغِ إليهم، وعلى سائرِ الأمَمِ في تبليغِ أنبيائهم ونحو ذلك.

وممَّن اختاره: ابنُ عطية، والرسعني.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (389/4)، ((تفسير الرسعني)) (172/6).

وذهب ابنُ عثيمين إلى العموم، وأنَّ المرادَ أنَّه شاهدٌ بما أوحاه الله تعالى إليه، وحاكمٌ به، وشاهدٌ على مَن أُرسِل إليهم، وشاهدٌ على مَن سبَقه مِن الأُممِ.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 338).

(98) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حِصنًا للعَرَبِ يتحَصَّنونَ به من غوائِلِ الشَّيطانِ، أو مِن سَطوةِ العَجَمِ وتغَلُّبِهم، وسُمُّوا أمِّيِّينَ؛ لأنَّ أغلَبَهم لا يَقرؤونَ ولا يكتُبونَ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (51/4).

(99) ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ: أي: لا يرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ، ولا يُكثِرُ الصِّياحَ عليهم في الأسواقِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (52/4).

(100) رواه البخاري (2125).

وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46).

وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ.

أي: وأرسَلْناك –يا مُحمَّدُ– داعيًا إلى اللهِ وَحْدَه بإذْنِ الله تعالى لك في الدَّعوةِ وأمرِه وإرادتِه وقَدَرِه وتيسيرِه.

وَسِرَاجًا مُنِيرًا.

أي: وسِراجًا مُنيرًا يُستَضاءُ ويُهتدَى به.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47).

أي: وبَشِّرِ المُؤمنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عَظيمًا جليلًا.

كما قال تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [البقرة: 25].

وقال سُبحانَه: لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [يونس: 64].

وقال عزَّ وجلَّ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وقال تبارك وتعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [الشورى: 22].

وقال جلَّ جلالُه: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف: 12، 13].

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48).

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

أي: ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ -يا مُحَمَّدُ- فيما يَدْعونَك ويُشيرونَ عليك؛ مِنَ المُداهَنةِ في الدِّينِ، أو التَّقصيرِ في تَبليغِ رِسالةِ ربِّ العالَمين.

وَدَعْ أَذَاهُمْ.

أي: وأعرِضْ -يا مُحَمَّدُ- عن إيذاءِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ لك، ولا تُبالِ بهم، واصبِرْ عليهم.

كما قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا [النساء: 81].

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.

أي: أي: واعتَمِدْ –يا مُحَمَّدُ– على اللهِ وَحْدَه، في إتمامِ أمرِك، وخذلانِ عدوِّك، وتبليغِ الرِّسالةِ، وفوِّضْ إليه أمورَك كُلَّها فإنَّه يَكْفيكَ(101).

كما قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ [الفرقان: 58].

وقال سُبحانَه: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ [النمل: 79].

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

أي: وحسْبُك اللهُ –يا مُحَمَّدُ– قائِمًا بأمورِك، وحافِظًا لك.

---

(101) قال ابنُ عطية (٧/ ١٢٨): «قال لنا أبي؟: هذه مِن أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلًا كبيرًا، وقد بَيَّنَ الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ [الشورى: ٢٢]، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في (حم عسق) تفسير لها».

قال ابنُ عطية (٧/ ١٢٨) بتصرف: «قوله تعالى: ﴿ودع آذاهم﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يأمره بترك أن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكأن المعنى: واصفح عن زللهم ولا تؤذهم، فالمصدر –على هذا– مضاف إلى المفعول، ونُسِخ من الآية –على هذا التأويل– ما يخص الكافرين، وناسخه: آية السيف.

والمعنى الثاني: أن يكون قوله: ﴿ودع آذاهم﴾ بمعنى: أعرض عن أقوالهم، وما يؤذونك به، فالمصدر –على هذا التأويل– مضاف إلى الفاعل».

وإلى المعنى الأول ذَهَبَ ابنُ تيمية (٥/ ٢٥٠ – ٢٥١) مستندًا إلى أحوال النزول.

وإلى المعنى الثاني ذَهَبَ ابنُ جرير (١٩/ ١٢٧) مستندًا إلى أقوال السلف.

سورةُ الأحزابِ

الآية (49)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

تَمَسُّوهُنَّ: أي: تَقربوهنَّ وتُجامِعوهنَّ، وأصلُ المسِّ: جَسُّ الشَّيءِ باليدِ.

تَعْتَدُّونَهَا: أي: تُحْصونَها بالأقراءِ والأشهرِ، وتَسْتَوْفونَ عَدَدَها، مِن: عَدَدْتُ الدَّراهِمَ فأنا أعتدُّها، وأصلُ (عدد) هنا: مِن العدِّ الَّذي هو الإحصاءُ.

فَمَتِّعُوهُنَّ: أي: أعطوهنَّ ما يَستمتِعْنَ به، والمُتعةُ: ما تُعطَى المُطَلَّقةُ لِتَنتفِعَ به، وأصلُ (متع): يدُلُّ على منفعةٍ وامتِدادِ مدَّةٍ في خَيرٍ.

وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا: أي: أخْلوا سَبيلَهنَّ تخليَةً بالمعروفِ مِن غيرِ ضرارٍ، والتَّسْريحُ: التَّطليقُ، والسَّراحِ هو الطَّلاقُ، والسَّرْحُ: شجرٌ له ثمرٌ، وسَرَّحْتُ الإبلَ، أصلُه: أن تُرْعيَه السَّرْحَ، ثمَّ جُعِلَ لكلِّ إرسالٍ في الرَّعيِ، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على الانطلاقِ.

تَفسيرُ الآيةِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا عقَدْتُم عَقدَ الزَّواجِ على المُؤمِناتِ، ثمَّ طَلَّقتُموهنَّ قبْلَ أن تُجامِعوهنَّ.

كما قال تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ [البقرة: 236].

فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا.

أي: فما لكم -أيُّها المؤمِنونَ- عِدَّةٌ تُحصونَها عليهنَّ.

فَمَتِّعُوهُنَّ.

أي: فأعطوهنَّ ما يَستَمتِعنَ به مِن مَتاعِ الدُّنيا.(102)

---

(102) قال ابنُ كثير (١١/ ١٨٩): «المتعة ههنا أعم مِن أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها، قال الله تعالى: ﴿وإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ وقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾، وقال – عز وجل –: ﴿لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ومَتِّعُوهُنَّ عَلى المُوسِعِ قَدَرُهُ وعَلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعًا بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلى المُحْسِنِينَ﴾، وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد، وأبي أسيد – رضي الله عنهما – قالا: إن رسول الله – ﷺ – تزوج أميمة بنت شراحيل، فلمّا أن دخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيَّين».

كما قال تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [البقرة: 236، 237].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ وأبي أُسَيدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: ((تزوَّج النَّبيُّ - ﷺ - أُمَيمةَ بنتَ شَراحِيلَ، فلمَّا أُدخِلَت عليه بسَطَ يَدَه إليها، فكأنَّها كَرِهَت ذلك، فأمَرَ أبا أُسَيدٍ أن يُجَهِّزَها ويَكسوَها ثَوبَينِ رازقيَّينِ))[103]. [104]

---

(103) الرَّازِقيَّة: ثيابٌ مِن كَتَّانٍ بِيضٌ طِوالٌ.

وقيل: يكونُ في داخِلِ بَياضِها زُرْقةٌ، والرَّازقيُّ: الصَّفيقُ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (359/9).

(104) رواه البخاري (5256).

وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا.

أي: وأخلُوا سَبيلَهنَّ تَخليةً حَسَنةً.(105)

(105) قيل: المرادُ بالسَّراحِ الجَميلِ هنا: أي بدُونِ أذًى ولا إضرارٍ ولا منْعِ حقٍّ.

وممَّن اختاره في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/500)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/473)، ((تفسير البيضاوي)) (4/235)، ((تفسير العليمي)) (5/374)، ((تفسير الشوكاني)) (4/334)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/62).

وقال الرازي: (الجمالُ في التَّسريحِ ألَّا يُطالِبَها بما آتاها).

((تفسير الرازي)) (25/175).

وقال البِقاعي: (سَرَاحًا جَمِيلًا بالإحسانِ قولًا وفعلًا، مِن غيرِ ضِرارٍ بوجْهٍ أصلًا).

((نظم الدرر)) (15/377).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 360، 361).

وفي معناه أقوالٌ أخرى.

يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (8/400)، ((تفسير القرطبي)) (14/ 204، 205).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَمَر بتَسريحِهِنَّ بعدَ الطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ، وهو طلاقٌ بائنٌ لا رَجعةَ فيه، وليس التَّسريحُ هنا تطليقًا باتِّفاقِ المُسلِمينَ).

((مجموع الفتاوى)) (20/536).

سورةُ الأحزابِ

الآيات (50–52)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)

غَريبُ الكَلِماتِ:

أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ: أي: رجَعَه ورَدَّه إليك مِن الكُفَّارِ بأن سَبَيْتَه ومَلَكْتَه، والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ.

تُرْجِي: أي: تُؤخِّرُ، وأصلُ (رجأ): يدُلُّ على التَّأخيرِ.

وَتُؤْوِي: أي: تَضُمُّ، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على تجَمُّعٍ.

عَزَلْتَ: أي: تَركْتَ وأخَّرْتَ، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ.

أَدْنَى: أي: أقرَبُ، وأصلُ الدُّنوِّ: القُربُ.

تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ: أي: تَطِيبُ نَفْوسُهُنَّ، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَرْدِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه: بردَتْ فصحَّتْ، وقيل: بل لأنَّ للسُّرورِ دمعةً باردةً قارَّةً، وقيل: هو مِن القرارِ.

رَقِيبًا: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلِعًا، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لمُراعاةِ شَيءٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لك أزواجَك اللَّاتي آتيتَهنَّ مُهورَهنَّ.(106)

---

(106) قال ابنُ جُزَي: (في معناها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أزواجُه اللَّاتي في عِصمتِه حينَئذٍ؛ كعائشةَ وغَيرِها، وكان قد أعطاهنَّ مُهورَهنَّ، والآخَرُ: أنَّ المرادَ جميعُ النِّساءِ، فأباح اللهُ له أن يتزوَّجَ كُلَّ امرأةٍ يُعطى مَهرُها).
((تفسير ابن جزي)) (154/2).
ونسَب القرطبيُّ القولَ الأوَّلَ للجمهورِ، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ عثيمين.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (206/14)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (500/3)، ((تفسير السمرقندي)) (67/3)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 366، 367).
وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: القرطبيُّ، وعلى هذا القولِ يكونُ هذا الإحلالُ ناسِخًا للتَّحريمِ في قَولِه تعالى: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وتكونُ هذه الآيةُ وإن كانت مُقَدَّمةً في التِّلاوةِ، متأخِّرةَ النُّزولِ عن الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيتَيِ الوفاةِ في سورةِ البقرةِ.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (206/14).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زيد.

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ.

أي: وأحلَلْنا لك النِّساءَ اللَّاتي مَلَكْتَهنَّ ممَّا نِلْتَه مِنَ الكُفَّارِ.(107)

وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ.

أي: وأحلَلْنا لك بناتِ عَمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك؛ اللَّاتي هاجَرْنَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ كما فعَلْتَ.(108)

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (130/19).
وذكَر ابنُ عثيمين أنَّه بِناءً على هذا القول: (يجبُ أن نؤوِّلَ الفِعلَ الماضيَ بالفعلِ المضارِعِ؛ يعني: اللَّاتي تؤتي أجورَهنَّ.
وهذا خِلافُ ظاهِرِ الآيةِ).
((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 367).
(107) قيل: معنى مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ: ممَّا رَدَّه اللهُ عليك مِن الكُفَّارِ بالغنيمةِ لِنسائِهم المأخوذاتِ على وَجهِ القَهرِ والغَلَبةِ.
وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والشوكاني.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (207/14)، ((تفسير الشوكاني)) (335/4).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 368، 369).
قال الشوكاني: (وليس المرادُ بهذا القيدِ إخراجَ ما ملكَه بغيرِ الغَنيمةِ؛ فإنَّها تحِلُّ له السُّرِّيَّةُ المشتراةُ والموهوبةُ ونحوُهما، ولكِنَّه إشارةٌ إلى ما هو أفضَلُ، كالقَيدِ الأوَّلِ المصرِّحِ بإيتاءِ الأجورِ).
((تفسير الشوكاني)) (335/4).
وقيل: الفَيءُ هو: ما ناله المسلِمونَ مِن العدُوِّ بغيرِ قتالٍ، ولكِنْ تركَه العدوُّ، أو ممَّا أُعطيَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِثلُ: ماريَّةَ القِبطيَّةِ أمِّ ابنِه إبراهيمَ.
قاله ابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (64/22، 65).
(108) قال ابنُ عاشور: (بناتُ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هنَّ بناتُ إخوةِ أبيه، مِثلُ: بناتِ العبَّاسِ، وبناتِ أبي طالبٍ، وبناتِ أبي لهبٍ؛ وأمَّا بناتُ حمزةَ فإنَّهنَّ بناتُ أخٍ مِن الرَّضاعةِ لا يحِلَّنَ له.

وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا.

وبناتُ عَمَّاتِه: هنَّ بناتُ [بنات] عبدِ المطَّلِب، مثلُ: زينبَ بنتِ جَحشٍ الَّتي هي بنتُ أُميمةَ بنتِ عبدِ المطَّلِبِ، وبناتُ خالِه هنَّ بناتُ عبدِ مَنافِ بنِ زُهرةَ، ومِن أخوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عبدُ يَغوثَ بنُ وهبٍ أخو آمِنةَ، ولم يَذكُروا أنَّ له بناتٍ... وقد ذُكِر في «الإصابةِ» فُرَيعةَ بنتَ وَهبٍ، وذكروا هالةَ بنتَ وَهبٍ الزُّهْريةَ إلَّا أنَّها لِكَونِها زَوجةَ عبدِ المطَّلِبِ، وابنتُها صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسولِ اللهِ: فقد دخَلَت مِن قبْلُ في بناتِ عَمِّه).

((تفسير ابن عاشور)) (66/22).

ويُنظر: ((الإصابة في تمييز الصحابة)) لابن حجر (213/8، 281).

وقال الماتُريدي: (لم يفهَمْ أحدٌ مِن قولِه: هَاجَرْنَ مَعَكَ الهِجرةَ معه حتَّى لا يتقدَّمنَ ولا يتأخَّرْنَ، بل دخَل في قَولِه: مَعَكَ مَن هاجرَ منهنَّ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ.

والله أعلمُ).

((تفسير الماتريدي)) (402/8).

وممَّن قال بهذا المعنى أيضًا: السمرقندي، والشوكاني، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (67/3)، ((تفسير الشوكاني)) (335/4)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 371).

قيل: قَيْدُ المُهاجَرةِ غَيرُ مَقصودٍ لِذَاتِه، وإنَّما المرادُ بيانُ شَرَفِهنَّ وشَرَفِ الهِجرةِ.

وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (381/15)، ((تفسير الشوكاني)) (335/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (65/22).

قال البِقاعي: (لم يُرِدْ بذلك التَّقييدَ، بل التَّنبيهَ على الشَّرَفِ، وإشارةً إلى أنَّه سَبَق في عِلمِه سُبحانَه أنَّه لا يقَعُ له أن يتزوَّجَ مَن هي خارجةٌ عن هذه الأوصافِ).

((نظم الدرر)) (381/15).

وقيل: قَيدُ الهِجرةِ مُعتبَرٌ، فلا تَحِلُّ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ امرأةٌ لم تهاجِرْ.

وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (501/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 669).

أي: وأحلَّ اللهُ لك –يا مُحمَّدُ– الزَّواجَ مِن أيِّ امرأةٍ مُؤمِنةٍ إذا وهَبَت نَفسَها[109] لكَ لِتتزوَّجَها بغيرِ مَهرٍ، فقَبِلْتَ الزَّواجَ بها.[110]

---

(109) قال ابنُ عطية (٧/ ١٣٣ بتصرف): «أجمع الناسُ على أن ذلك لا يجوز، إلا ما روي عن أبي حنيفة ومحمد بن الحسن وأبي يوسف أنهم قالوا: إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز.

فليس في قولهم إلا تجويز العبارة بلفظة الهبة، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه».

وقال ابنُ تيمية (٥/ ٢٥٣): «ليس هذا لغيره باتفاق المسلمين».

قال ابنُ عطية (٧/ ١٣٣): «يظهر من لفظ أبي بن كعب أن معنى قوله: ﴿خالصة لك﴾ يراد به جميع الإباحة؛ لأن المؤمنين قُصِروا على مثنى وثلاث ورباع».

(110) قال ابنُ تيميَّةَ: (أحلَّ سُبحانَه لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النِّساءِ أجناسًا أربعةً، ولم يجعَلْ خالِصًا له مِن دونِ المؤمِنينَ إلَّا الموهوبةَ الَّتي تَهَبُ نَفْسَها للنَّبيِّ، فجعَل هذه مِن خصائِصِه؛ له أن يتزوَّجَ الموهوبةَ بلا مَهرٍ، وليس هذا لغيرِه، باتِّفاقِ المسلِمينَ).

((مجموع الفتاوى)) (62/32).

وقال ابنُ القيِّم: (قَولُه تعالى: وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ يحتَمِلُ أن تكونَ الهِبةُ شَرطًا، ويكونَ فِعلُ الإرادةِ جوابًا له، ويكونَ التَّقديرُ: إنْ وهَبَت نفْسَها للنَّبيِّ، فإن أراد النبيُّ أن يَستَنكِحَها فخالِصةٌ له، ويحتَمِلُ أن تكونَ الإرادةُ شَرطًا والهِبةُ جوابًا له، والتَّقديرُ: إن أراد النَّبيُّ أن يَستنكِحَها فإن وهَبَت نفْسَها فهي خالِصةٌ له.

يحتَمِلُ الأمْرَينِ).

((بدائع الفوائد)) (60/1).

وقال ابن عثيمين: (قال تعالى: إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا وهذا الشَّرطُ داخِلٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ، وقد عُلِمَ أنَّ الشَّرطَ الثَّانيَ قَيدٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ؛ فهو متأخِّرٌ لفظًا متقدِّمٌ معنًى، وكلَّما تداخَلت الشُّروطُ فاجعَلِ الشَّرطَ الأخيرَ قَيدًا فيما قَبْلَه...

وهنا قال تعالى: وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ الإرادةُ تَسبِقُ الحِلَّ والقَبولَ).

((تفسير ابن عثيمين– سورة الأحزاب)) (ص: 372).

قيل: النِّسوةُ اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أربعٌ؛ هُنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ، وزينبُ بنتُ خُزيمةَ الأنصاريَّةُ الملقَّبةُ أمَّ المساكينِ، وأمُّ شَريكٍ بنتُ جابرٍ الأسَديَّةُ أو العامريَّةُ، وخَولةُ بنتُ حكيمٍ السُّلَميَّةُ؛ فأمَّا الأُولَيانِ فتزوَّجَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهما مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، والأُخرَيانِ لم يَتزوَّجْهما، وقيل غير ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (68/22).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (550/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (315/1).

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي قد وهَبْتُ لك مِن نَفْسي. فقال رجُلٌ: زوِّجْنيها. قال: قد زوَّجْناكها بما معك مِن القُرآنِ)).[111]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (كنتُ أغارُ على اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -، وأقولُ: أتَهَبُ المرأةُ نَفْسَها؟! فلمَّا أنزل اللهُ تعالى: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ قلتُ: ما أرى رَبَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك!)[112].[113]

وعن ثابتٍ البُنانيِّ، قال: (كنتُ عندَ أنسٍ وعِندَه ابنةٌ له. قال أنَسٌ: جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ - تَعرِضُ عليه نَفْسَها، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ألكَ بي حاجةٌ؟ فقالت بنتُ أنسٍ: ما أقَلَّ حياءَها! واسَوْأَتاهْ واسوأَتاهْ![114] قال: هي خيرٌ منك؛ رَغِبَتْ في النَّبيِّ - ﷺ -، فعَرَضَت عليه نَفْسَها).[115]

خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.

---

(111) رواه البخاري (2310) واللفظ له، ومسلم (1425).

(112) أي: يخفِّفُ عنك، ويوسِّعُ عليك في الأمورِ؛ ولهذا خيَّرَك.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (49/10).

(113) رواه البخاري (4788) واللفظ له، ومسلم (1464).

(114) السوءة: الفعلةُ القبيحةُ، والألِفُ للنُّدبةِ، والهاءُ للسَّكتِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (175/9).

(115) رواه البخاري (5120).

أي: أحلَّ اللهُ لك –يا محمَّدُ– خاصَّةً تزوُّجَ مَن وَهَبَت نفْسَها لك، بلا مَهرٍ ولا وَلِيّ، ولا يحِلُّ ذلك لأحَدٍ مِن أمَّتِك.

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ.

أي: قد عَلِمْنا ما أوجَبْنا على المؤمِنينَ في الزَّواجِ، وعَلِمْنا أنَّ المصلحةَ تقتَضي ما شرَعْناه؛ فلا يكونُ إلَّا بمَهرٍ ووَلِيٍّ وشُهودٍ عُدولٍ، ولا يحِلُّ لهم أكثَرُ مِن أربَعِ زَوجاتٍ، ولهم مِلكُ ما شاؤوا مِنَ النِّساءِ بالسَّبْيِ، أو التَّسَرِّي، أو غيرِ ذلك مِن أسبابِ المِلْكِ.

لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ.

أي: وسَّعْنا عليك في أمرِ الزَّواجِ بالنِّساءِ –يا مُحمَّدُ–؛ لكيلا يكونَ عليك إثمٌ وضِيقٌ في نِكاحِهنَّ.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ بعبادِه، فيُحسِنُ إليهم ويُنعِمُ عليهم مِن فَضلِه.

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51).

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ.

أي: تُؤخِّرُ –يا مُحمَّدُ–[116] مَن أُحِلَّ لك مِنَ النِّساءِ، وتَضُمُّ إليك مَن تَشاءُ مِنهُنَّ.[117]

---

(116) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ على أربعة أقوال: أولها: أن المعنى: تعزل من شئت من أزواجك فلا تأتيها، وتأتي من شئت من أزواجك فلا تعزلها، والقَسْم على هذا التأويل كان ساقطًا عنه – ﷺ –.

والثاني: أن المعنى: تترك نكاح مَن تشاء، وتنكح من تشاء مِن نساء أُمّتك.

والثالث: أن المعنى: تطلق من تشاء من نسائك، وتمسك من تشاء منهن.

والرابع: أن المعنى: تؤخر من تشاء من الواهبات، وتضم إليك من تشاء منهن.

واختار ابنُ جرير (١٩/ ١٤٣) أنّ الآية عامة في الواهبات، وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم؛ لعدم الحصر، فقال: «أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله –تعالى ذِكْرُه– جعل لنبيه أن يرجي من النساء اللواتي أحلهن له من يشاء، ويؤوي إليه منهن من يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاء والإيواء على المنكوحات اللواتي كُنَّ في حباله –ثمّ نزلت هذه الآية– دون غيرهن ممَّن يستحدث إيواءها أو إرجاءها منهن.

وإذ كان ذلك كذلك فمعنى الكلام: تؤخر من تشاء ممَّن وهبت نفسها لك، وأحللت لك نكاحها، فلا تقبلها ولا تنكحها، أو ممن هن في حبالك؛ فلا تقربها، وتضم إليك من تشاء ممن وهبت نفسها لك أو أردت من النساء اللاتي أحللت لك نكاحهن؛ فتقبلها أو تنكحها، وممَّن هي في حبالك؛ فتجامعها إذا شئت وتتركها إذا شئت بغير قسم».

ومالَ ابنُ كثير (١١/ ١٩٦) إلى اختيار ابن جرير، مستندًا إلى السياق، فقال: «هذا الذي اختاره حسن جيّد قويّ، وفيه جمع بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا عَلِمْنَ أنّ الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهنَّ اختيارًا منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فَرِحْن بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك، واعْتَرَفْن بمِنَّتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن».

وعلَّقَ ابنُ عطية (٧/ ١٣٤) على كلّ تلك الأقوال بقوله: «وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله – ﷺ –، والإباحة له».

(117) قيل: المعنى المرادُ: هو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُخيَّرًا في أزواجِه؛ إن شاء أن يَقسِمَ قَسَم، وإن شاء أن يترُكَ القَسْمَ تَرَك.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ العربي، والقرطبيُّ، والسعديُّ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى أكثَرِ العلماءِ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (478/3)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (605/3)، ((تفسير القرطبي)) (214/14)، ((تفسير السعدي)) (ص: 669)، ((تفسير ابن الجوزي)) (476/3).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وأبو رَزِينٍ، والضَّحَّاكُ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (139/19)، ((تفسير ابن كثير)) (446/6).

وقيل: المرادُ: تؤخِّرُ مَن تشاءُ مِن الواهباتِ أنفُسَهنَّ، ومَن شِئتَ قَبِلْتَها، ومَن شِئتَ رَدَدْتَها، ومَن رددْتَها فأنت فيها أيضًا بالخيارِ بعدَ ذلك، إنْ شِئتَ عُدْتَ إليها فآوَيْتَها.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (445/6، 446).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (143/19).

واستحسَنَ ابنُ كثيرٍ اختيارَ ابنِ جريرٍ، فقال: (اختار ابنُ جريرٍ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ، وهذا الَّذي اختاره حَسَنٌ جَيِّدٌ قَويٌّ، وفيه جمعٌ بيْنَ الأحاديثِ).

((تفسير ابن كثير)) (446/6).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 394، 395).

وذهب ابنُ عاشور إلى أن ضمير مِنْهُنَّ عائدٌ إلى النِّساءِ المذكوراتِ: أمَّا مَن هنَّ في عصمتِه، فإرجاؤُهنَّ ينصرِفُ إلى القَسْمِ.

وأمَّا مَلَكَتْ يمينُه فإرجاؤُهنَّ هو حكمٌ أصليٌّ إذ لا يجبُ للإماءِ عدلٌ في المعاشرةِ ولا في المبيتِ.

وأمَّا مَن أحلَّ اللهُ له نكاحَهنَّ غيرَهنَّ مِن بناتِ عمِّه وعمَّاتِه وخالِه وخالاتِه، فإرجاؤُهنَّ تأخيرُ تزوُّجِ مَن يَحِلُّ منهنَّ، وإيواؤُهنَّ العقدُ على إحداهنَّ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يتزوَّجْ واحدةً بعدَ نزولِ هذه الآيةِ، وذلك إرجاءُ العملِ بالإذْنِ فيهنَّ إلى غيرِ أجلٍ مُعيَّنٍ.

وأمَّا الواهباتُ أنفسَهنَّ، فإرجاؤُهنَّ عدمُ قبولِ نكاحِ الواهبةِ، وإيواؤُهنَّ قبولُ هِبَتِهنَّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (72/22).

وقال ابنُ الجوزي: (في معنى الآيةِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: تُطَلِّقُ مَن تشاءُ مِن نسائِك، وتُمسِكُ مَن تشاءُ مِن نسائِك.

قاله ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: تتركُ نِكاحَ مَن تشاءُ، وتَنكِحُ مِن نساءِ أمَّتِك مَن تشاءُ.

قاله الحسَنُ.

والثَّالثُ: تَعزِلُ مَن شِئتَ مِن أزواجِك فلا تأتيها، بغيرِ طلاقٍ، وتأتي مَن تشاءُ فلا تعزِلُها.

قاله مجاهِدٌ.

والرَّابعُ: تَقْبَلُ مَن تشاءُ مِن المؤمناتِ اللَّواتي يَهَبْنَ أنفُسَهنَّ، وتترُكُ مَن تشاءُ.

قاله الشَّعْبيُّ، وعِكْرِمةُ.

وأكثَرُ العُلَماءِ على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ مُبيحةً لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصاحَبةَ نِسائِه كيف شاء، مِن غيرِ إيجابِ القِسمةِ عليه، والتَّسويةِ بيْنَهُنَّ، غيرَ أنَّه كان يُسَوِّي بينهنَّ).

عن مُعاذةَ العَدَويَّةِ، عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - كان يَستأذِنُ في يومِ المرأةِ مِنَّا بعدَ أن أُنزِلَت هذه الآيةُ: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، فقلتُ لها: ما كُنتِ تقولينَ؟ قالت: كُنتُ أقولُ له: إنْ كان ذاك إليَّ فإنِّي لا أُريدُ -يا رَسولَ اللهِ- أن أُوثِرَ عليك أحَدًا!)).(118)

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ.

أي: فإنْ عَزَلْتَ بالإرجاءِ إحداهنَّ -كما لو كان بطَلاقٍ أو رَدِّ هِبةٍ مَثلًا- ثمَّ رَغِبْتَ فيها؛ فلا بأسَ ولا إثمَ عليك في إيوائِها بعدَ ذلك، سواءٌ كان ذلك بقَبولِ هِبتِها نَفْسَها له، أو برَدِّها إلى ما كانت عليه مِنَ النِّكاحِ أو القَسْمِ إن كانت مِن زَوجاتِه؛ فاختيارُك السَّابِقُ غَيرُ مُلزِمٍ لك، بل الأمرُ راجِعٌ إلى اختيارِك ورَغبتِك في ذلك.(119)

((تفسير ابن الجوزي)) (476/3).

وقال ابنُ عاشورٍ: (اتَّفق الرُّواةُ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَستعمِلْ مع أزواجِه ما أُبيحَ له؛ أخذًا منه بأفضَلِ الأخلاقِ، فكان يَعدِلُ في القَسْمِ بيْنَ نسائِه، إلَّا أنَّ سَوْدةَ وهَبَتْ يومَها لعائشةَ؛ طَلَبًا لِمَسَرَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((تفسير ابن عاشور)) (74/22).

وقال ابنُ جُزي: (والضَّـميرُ في قَولِه مِنْهُنَّ: يعودُ على أزواجِه -صـلَّى اللهُ عليه وآلِه وسـلَّمَ- خاصَّـةً، أو على كلِّ ما أحَلَّ اللهُ له، على حَسَبِ الخلافِ المتقَدِّمِ).

((تفسير ابن جزي)) (156/2).

(118) رواه البخاري (4789).

(119) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُناحَ عَلَيْكَ﴾ على قولين: أولهما: ومَن ابتغيت إصـــابته من نسائك ممن كنت عزلته عن الجماع، فجامعته، فلا جناح عليك.

وهذا قول قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لَمَّا أنزل الله تعالى: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ قُلتُ: ما أرى ربَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك!).[120]

والثاني: ومن استبدلت ممن أرجيت، فخليت سبيله من نسائك، أو ممن مات منهن ممن أحللت لك، فلا جناح عليك.

وهذا قول ابن عباس.

ورَجَّح ابنُ جرير (١٩/ ١٤٣) القول الأول مستندًا إلى السياق، فقال: «أولى التأويلين بالصواب في ذلك: تأويل من قال: معنى ذلك: ومن ابتغيت إصابته من نسائك مِمَّنْ عَزَلْتَ عن ذلك منهن فَلا جُناحَ عَلَيْكَ؛ لدلالة قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ على صحة ذلك؛ لأنه لا معنى لأن تقر أعينهن إذا هو - ﷺ - استبدل بالميتة أو المطلقة منهن، إلا أن يعني بذلك: ذلك أدنى أن تقر أعين المنكوحة منهن، وذلك مما يدل عليه ظاهر التنزيل بعيد».

وقال ابنُ عطية (٧/ ١٣٥ بتصرف): «قوله - عز وجل -: ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ يحتمل معاني: أحدها: أن تكون» مِن «للتبعيض، أي: مَن أردتَه وطلبته نفسك ممن قد كنت عزلته فلا جناح عليك في ردِّه إلى نفسك وإيوائه إليه بعد عزلته.

ووجه ثان: وهو أن يكون مُقَوِّيًا ومؤكدًا لقوله: ﴿ترجي من تشاء وتؤوي من تشاء﴾، فيقول بعد ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت﴾ فذلك سواء لا جناح عليك في جميعه، وهذا المعنى يصح أن يكون في القَسم، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك، وفي الواهبات، وبكل واحد قالت فرقة».

(120) رواه البخاري (4788) واللفظ له، ومسلم (1464).

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ.

أي: ذلك [121]–يا مُحمَّدُ– هو أقرَبُ لِأنْ يَفرَحْنَ ولا يَحزَنَّ.

---

(121) قال ابنُ عاشورٍ: (الإشارةُ إلى شَيءٍ ممَّا تقدَّم وهو أقربُه، فيجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى معنَى التَّفويضِ المستفادِ مِن قولِه: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الابتغاءِ المتضمِّنِ له فِعلُ ابتغَيْتَ، أي: فلا جناحَ عليك في ابتغائِهنَّ بعدَ عزلِهنَّ ذلك أدنَى لأنْ تَقَرَّ أعيُنُهنَّ...

فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنَى أنَّ في هذا التَّفويضِ جَعَل الحقَّ في اختيارِ أحدِ الأمْرينِ بيدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُبْقِ حقًّا لهنَّ، فإذا عَيَّنَ لإحداهنَّ حالةً مِن الحالينِ رَضِيَتْه به...

وعلى الوجهِ الثَّاني يكونُ المعنَى: ذلك الابتغاءُ بعدَ العزلِ أقربُ لأنْ تَقَرَّ أعينُ اللَّاتي كنت عزَلْتَهنَّ).

((تفسير ابن عاشور)) (22/75).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: ذلك التَّخييرُ الَّذي خيَّرْناك والتَّفويضُ إلى مشيئتِك: الواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشوكاني.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (18/278)، ((تفسير الرسعني)) (6/181)، ((تفسير العليمي)) (5/378)، ((تفسير الشوكاني)) (4/337).

وقال ابن جرير: (هذا الَّذي جعلْتُ لك يا محمَّدُ مِن إذْنِي لك أن تُرجيَ مَن تشاءُ مِن النِّساءِ اللَّواتي جعلْتُ لك إرجاءَهن، وتُؤْوي مَن تشاءُ منهنَّ، ووضْعي عنك الحَرَجَ في ابتغائِك إصابةَ مَنِ ابتغَيْتَ إصابتَه مِن نسائِك، وعزلِك عن ذلك مَن عزَلْتَ منهنَّ– أقرَبُ لِنسائِك أن تقرَّ أعينُهنَّ به، ولا يحزَنَّ).

((تفسير ابن جرير)) (19/145).

وقال الألوسي: (أي: تفويضُ الأمرِ إلى مشيئتِك أقربُ إلى قُرَّةِ عيونِهنَّ، وسرورِهنَّ، ورِضاهنَّ جميعًا؛ لأنَّه حُكمٌ كلُّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بيْنَهنَّ وجَدْنَ ذلك تفضُّلًا منك، وإن رجَّحْتَ بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنَّه بحُكمِ الله تعالى؛ فتطمئِنُّ به نفوسُهنَّ، ورُوِي هذا عن قَتادةَ، والمرادُ بما آتَيْتَهُنَّ عليه: ما صنَعْتَ معهنَّ، فيَتناولُ تَرْكَ المُضاجعةِ والقَسْمِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ أنَّ المعنى: أنهُنَّ إذا عَلِمْنَ أنَّ لك ردَّهن إلى فِراشِك بعدَ ما اعتزلْتَهُنَّ قرَّتْ أعينُهن، ولم يَحْزَنَّ، ويَرْضَيْنَ بما تفعلُه مِن التَّسويةِ والتَّفضيلِ؛ لأنهُنَّ يَعلمْنَ أنَّك لم تُطلِّقْهنَّ، وظاهِرُه جعْلُ المشارِ إليه العِلمُ بأنَّ له صلَّى الله عليه وسلَّم الإيواءَ، وأظهرُ منه ...: ذلك العِلمُ منهنَّ بأنَّك إذا عزَلْتَ واحدةً كان لك أن تُؤوِيَها بعدَ ذلك أدْنَى لسُرورِهنَّ وقُرَّةِ أعيُنِهنَّ.

وقال بعضُ الأجِلَّةِ: كَوْنُ الإشارةِ إلى التَّفويضِ أنسَبُ لفظًا؛ لأنَّ ذلك للبعيدِ، وكَوْنُها إلى الإيواءِ أنسَبُ معنًى؛ لأنَّ قُرَّةَ عيونهِنَّ بالذَّاتِ إنَّما هي بالإيواءِ).

((تفسير الألوسي)) (11/239).

وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ.

أي: وأقرَبُ لِأنْ يَرضَينَ كُلُّهنَّ بما أعطيتَهنَّ -يا مُحمَّدُ.(122)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ.

أي: واللهُ يَعلَمُ كلَّ ما تُضمِرونَه في قُلوبِكم، ومِن ذلك أمورُ النساءِ، والمَيلُ إلى بَعضِهنَّ دونَ بَعضٍ.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ واسِعُ العِلمِ بأعمالِ عِبادِه وضَمائِرِهم، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبغيرِ ذلك؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وهو كثيرُ الحِلمِ على عِبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بمُؤاخَذتِهم على ذُنوبِهم.

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52).

---

(122) قيل: المعنى: يَرضَيْنَ بما آتيتَهنَّ كُلُّهنَّ مِن تفضيلِ مَن فضَّلْتَ مِن قَسْمٍ أو نَفَقةٍ، وإيثارِ مَن آثرْتَ منهنَّ بذلك على غيرِها مِن نسائِك، إذا هنَّ عَلِمنَ أنَّه مِن رضايَ منك بذلك، وإذْني لك به، وإطلاقٍ منِّي لا مِن قِبَلِك.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/145)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/386).

ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (3/478)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 397).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/145).

وقال ابنُ عاشور: (في قَولِه: وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ الرِّضا الَّذي يَتساوَينَ فيه).

((تفسير ابن عاشور)) (22/76).

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ.

أي: لا يَحِلُّ لك الزَّواجُ بالنِّساءِ –يا مُحَمَّدُ– مِن بَعدُ.[123]

(123) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِن بَعْدُ﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد نسائك اللاتي خيرتهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وهذا قول ابن عباس، وقتادة.

والثاني: أن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الذي أحللنا لك بقولنا: ﴿إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ ...﴾ إلى قوله: ﴿وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية.

وهذا قول أُبَيّ بن كعب، وأبي صالح، والضحاك.

والثالث: أن المعنى: لا يحل لك النساء من غير المسلمات، فأما اليهوديات والنصرانيات والمشركات فحرام عليك.

وهذا قول مجاهد.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٩/ ١٥٠) أنّ الآية عامة فيمن ذُكِر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته –وهو عين القول الثاني– وانتَقَدَ القولَ الثالثَ مستندًا إلى السياق، فقال: «إنما قلت ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن قوله: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ﴾ عقيب قوله: ﴿إنّا أحْلَلْنا لَكَ أزْواجَكَ﴾، وغير جائز أن يقول: قد أحللت لك هؤلاء، ولا يحللن لك.

إلا بنسخ أحدهما صاحبه، وعلى أن يكون وقت فرض إحدى الآيتين فعل الأخرى منهما، فإذ كان ذلك كذلك ولا دلالة ولا برهان على نسخ حكم إحدى الآيتين حكم الأخرى، ولا تقدم تنزيل إحداهما قبل صاحبتها، وكان غير مستحيل مخرجهما على الصحة؛ لم يجز أن يقال: إحداهما ناسخة الأخرى.

وإذ كان ذلك كذلك، ولم يكن لقول من قال: معنى ذلك: لا يحل من بعد المسلمات يهودية ولا نصرانية ولا كافرة.

معنى مفهوم؛ إذ كان قوله: ﴿من بَعْدُ﴾ إنما معناه: من بعد المسميات المتقدم ذكرهن في الآية قبل هذه الآية، ولم يكن في الآية المتقدم فيها ذكر المسميات بالتحليل لرسول الله – ﷺ – –ذكرُ إباحة المسلمات كلهن، بل كان فيها ذكرُ أزواجه، وملك يمينه الذي يفيء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، –فتكون الكوافر مخصوصات بالتحريم–، صحّ ما قلنا في ذلك، دون قول مَن خالف قولنا فيه».

ومالَ ابنُ كثير (١١/ ١٩٦) إلى اختيار ابن جرير، فقال: «هذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإنّ كثيرًا منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة».

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: إنَّ هذه الآيَةَ مُحكَمةٌ ولا نَسْخَ فيها.

وقيل: إنَّ هذه الآيَةَ مَنسوخةٌ، واختُلِف في النَّاسِخِ؛ فقيل: مَنسوخةٌ بالآيَةِ الَّتي قَبْلَها، وهي قَوْلُه تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ... [الأحزاب: 50]. وقيل: مَنسوخةٌ بقولِه سُبحانه: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ [الأحزاب: 51]. وقيل: مَنسوخةٌ بالسُّنَّةِ، وليس في القرآنِ ما يُوجِبُ نَسْخَها.

وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ.

أي: ولا يحِلُّ لك أن تُطَلِّقَ واحِدةً مِن أزواجِك؛ لِتَتزوَّجَ بأُخرى، ولو أعجبَك جمالُها.(124)

---

(124) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿ولا أنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِن أزْواجٍ ولَوْ أعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ على ثلاثة أقوال:

أولها: أن المعنى: ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من الكوافر.

وهذا قول مجاهد، وأبي رزين.

والثاني: أن المعنى: ولا أن تبدل بأزواجك اللواتي هن في حبالك أزواجًا غيرهن؛ بأن تطلقهن وتنكح غيرهن.

وهذا قول الضحاك.

والثالث: أن المعنى: ولا أن تبادل من أزواجك غيرك؛ بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته.

وهذا قول ابن زيد.

واختار ابنُ جرير (١٩/ ١٤٣) القولَ الثانيَ، وانتقَدَ الأولَ مستندًا لدلالة العقل، وقال: «إنما قلنا ذلك أولى بالصواب لِما قد بَيَّنا قبلُ من أنّ قول الذي قال: معنى قوله: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِن بَعْدُ﴾: لا يحل لك اليهودية أو النصرانية والكافرة. قول لا وجه له.

فإذ كان ذلك كذلك، فكذلك قوله: ﴿ولا أنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ كافرةً لا معنى له؛ إذ كان مِن المسلمات من قد حرّم عليه بقوله: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِن بَعْدُ﴾ الذي دللنا عليه قبل».

إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ.

أي: لا يحِلُّ لك إلا نِكاحُ مَن شِئتَ مِن النِّساءِ اللَّاتي تَملِكُهنَّ.

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا.

أي: وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ حافِظًا ومُراقِبًا؛ لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وقائِمًا بتَدبيرِ كُلِّ شَيءٍ على أكمَلِ نِظامٍ، وأحسَنِ إحكامٍ.

وانتَقَدَ أيضًا القولَ الثالثَ؛ للقراءة المجمع عليها، والواقع، فقال: «أما الذي قاله ابن زيد في ذلك أيضًا فقول لا معنى له؛ لأنه لو كان بمعنى المبادلة لكانت القراءة والتنزيل: ولا أن تُبادل بهن من أزواج، أو: ولا أن تُبدِّل بهن –بضم التاء–، ولكن القراءة المجمع عليها: ﴿ولا أن تَبَدَّل بهن﴾ بفتح التاء، بمعنى: ولا أن تستبدل بهن، مع أن الذي ذكر ابن زيد من فعل الجاهلية غير معروف في أمة نعلمه من الأمم: أن يبادل الرجل آخر بامرأته الحرة، فيقال: كان ذلك مِن فِعْلهم فنهى رسول الله – ﷺ – عن فِعْل مثله!».

وكذا انتَقَدَه ابنُ عطية (٧/ ١٣٦)، فقال: «هذا قول ضعيف، أنكره الطبري وغيره في معنى الآية، وما فعلت العرب قط هذا، وما رُوِي من حديث عيينة بن حصن أنّه دخل على رسول الله – ﷺ – وعنده عائشة فقال: مَن هذه الحميراء؟ فقال رسول الله – ﷺ –: «هذه عائشة».

فقال عيينة: يا رسول الله، إن شئت نزلت لك عن سيدة العرب جمالًا ونسبًا.

فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية، فقال هذا القول».

وذهب ابنُ كثير (١١/ ٢٠٠) إلى ما ذهب إليه ابنُ جرير.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (53–55)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

نَاظِرِينَ: أي: مُنتظِرينَ، يُقالُ: نظَرْتُه، أي: انتظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه.

إِنَاهُ: أي: وَقتَ إدراكِه ونُضجِه وتهيئتِه، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ.

مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ: أي: طالِبينَ الأُنسَ للحَديثِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على الظُّهورِ، وعدَمِ الاستيحاشِ.

مَتَاعًا: أي: مَنفعةً وحاجةً، والمَتاعُ: كلُّ ما حَصَلَ التَّمتُّعُ والانتفاعُ به على وَجهٍ ما، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ.

حِجَابٍ: أي: سترٍ، وكلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويمنَعُ مِن الوصولِ إليه فهو حجابٌ، وأصلُ (حجب): المنعُ مِن الوصولِ.

لَا جُنَاحَ: أي: لا إثْمَ ولا حَرَجَ، وسُمِّيَ الإثمُ جُناحًا؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحَقّ، وأصلُ (جَنَح): يدُلُّ على الميلِ والعُدوانِ.

شَهِيدًا: أي: شاهدًا على كلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53)

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا تزوَّجَ رسولُ اللهِ - ﷺ - زينبَ بنتَ جَحشٍ، دعا النَّاسَ، طَعِموا ثمَّ جلسوا يتحدَّثونَ، فأخَذ كأنَّه يتهيَّأُ للقيامِ فلم يَقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قامَ مَن قام معه مِنَ النَّاسِ، وبَقِيَ ثلاثةٌ، وإنَّ النَّبيَّ - ﷺ - جاء لِيَدخُلَ فإذا القومُ جُلوسٌ، ثمَّ إنَّهم قاموا فانطلَقوا، فجِئتُ فأخبَرْتُ النَّبيَّ - ﷺ - أنَّهم قد انطلَقوا، فجاء حتَّى دخَل، فذهبتُ أدخُلُ فأرخَى الحِجابَ بيني وبيْنَه، وأنزَل اللهُ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ

مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)).[125]

وعن الجَعْدِ أبي عُثمانَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((تزوَّجَ رَسولُ الله – ﷺ – فدخَلَ بأهلِه، قال: فصَنَعَت أمِّي أمُّ سُلَيمٍ حَيْسًا،[126] فجعلَتْه في تَورٍ،[127] فقالت: يا أنَسُ، اذهَبْ بهذا إلى رَسولِ الله – ﷺ –، فقُلْ: بعَثَتْ بهذا إليك أمِّي، وهي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لك مِنَّا قَليلٌ يا رَسولَ اللهِ! قال: فذهبْتُ بها إلى رسولِ الله – ﷺ –، فقُلتُ: إنَّ أمِّي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لكَ مِنَّا قليلٌ يا رَسولَ الله. فقال: ضَعْهُ، ثمَّ قال: اذهَبْ، فادْعُ لي فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، ومَن لَقِيتَ –وسمَّى رجالًا– قال: فدعَوْتُ مَن سمَّى ومَن لَقِيتُ. قال الجعْدُ: قلتُ لأنَسٍ: عددَ كم كانوا؟ قال: زُهاءَ ثلاثِ مِئةٍ! وقال لي رَسولُ الله – ﷺ –: يا أنسُ، هاتِ التَّورَ. قال: فدخَلوا حتَّى امتلأتِ الصُّفَّةُ[128] والحُجرةُ، فقال رَسولُ الله – ﷺ –: لِيَتحلَّقْ عَشَرةٌ عَشَرةٌ، وليأكُلْ كُلُّ إنسانٍ ممَّا يليه.

---

(125) رواه البخاري (6271) واللفظ له، ومسلم (1428).

(126) الحَيْسُ: هو التَّمرُ مع السَّمنِ والأَقِطِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (34/8).

(127) التَّورُ: إناءٌ يُشرَبُ فيه.

يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (346/6).

(128) الصُّفَّةُ: موضعٌ مُظَلَّلٌ في مسجدِ المدينةِ، وأهلُ الصُّفَّةِ فقراءُ المهاجِرينَ ومَن لم يَكُنْ له منهم مَنْزِلٌ يَسْكُنُه، فكانوا يأْوونَ إليه.

يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (59/9).

قال: فأكَلوا حتَّى شَبِعوا، قال: فخَرَجَت طائفةٌ ودخَلَت طائفةٌ حتَّى أكلوا كُلُّهم! فقال لي: يا أنسُ، ارفَعْ. قال: فرفَعْتُ، فما أدري حينَ وَضَعْتُ كان أكثَرَ أم حينَ رَفَعْتُ!! قال: وجلس طوائِفُ منهم يَتحدَّثونَ في بيتِ رَسولِ اللهِ – ﷺ –، ورَسولُ الله – ﷺ – جالِسٌ وزوجتُه مُوَلِّيةٌ وَجْهَها إلى الحائِطِ! فثَقُلُوا على رَسولِ الله – ﷺ –، فخرَج رسولُ الله – ﷺ – فسَلَّم على نسائِه ثمَّ رجع، فلمَّا رأوا رسولَ الله – ﷺ – قد رجَع ظَنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه، فابتَدَروا البابَ فخرَجوا كُلُّهم، وجاء رَسولُ الله – ﷺ – حتَّى أرخى السِّتْرَ ودخل، وأنا جالِسٌ في الحُجرةِ، فلم يلبَثْ إلَّا يسيرًا حتَّى خرَج عليَّ، وأُنزِلَت هذه الآيةُ، فخرَج رَسولُ الله – ﷺ –، وقرَأهُنَّ على النَّاسِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ إلى آخرِ الآيةِ. قال الجَعْدُ: قال أنسُ بنُ مالكٍ: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عَهدًا بهذه الآياتِ، وحُجِبْنَ نِساءُ النَّبِيِّ – ﷺ –)).[129]

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (وافقْتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مَقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بدرٍ!).[130]

---

(129) رواه مسلم (1428).
ورواه البخاري (5163) معلقًا من حديث الجعد عن أنس بنحوه مختصرًا.
(130) رواه مسلم (2399).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال عُمَرُ رَضِيَ الله عنه: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ! فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ)).[131]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ بغيرِ إذنٍ إلَّا أن تُدعَوا إلى دُخولِها؛ لأجْلِ طَعامٍ تأكلونَه فيها، فيُؤذَنَ لكم.

غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ

أي: والحالُ أنَّكم غيرُ مُنتَظِرينَ وَقتَ نُضجِ الطَّعامِ واستِوائِه.

وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا

أي: ولكِنْ إذا دُعيتُم للدُّخولِ إلى بَيتٍ مِن بُيوتِ النَّبيِّ، فادخُلوه.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا

أي: فإذا فرَغتُم مِنَ الطَّعامِ فاخرُجوا مِن بَيتِ النَّبيِّ، وتفرَّقوا.

وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ

أي: ولا تَمكُثوا في بَيتِه بعدَ فَراغِكم مِنَ الطَّعامِ مُستأنِسينَ بالحَديثِ.

---

(131) رواه البخاري (4790).

إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ

أي: إنَّ ذَلِكم (132) كان يُؤذي النَّبيَّ ويَشُقُّ عليه، فيُصيبُه الحياءُ مِن إعلامِكم بذلك، فيَسكُتُ!

وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ

أي: وإنِ استَحْيا نَبيُّكم فلم يُبيِّنْ لكم كراهِيَةَ ذلك؛ حَياءً مِنكم: فإنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أن يُبيِّنَ لكم الحَقَّ؛ ولهذا نهاكم عن إيذاءِ نَبيِّه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا [البقرة: 26].

وقال سُبحانَه: وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ [الأحزاب: 4].

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

أي: وإذا سألْتُم أزواجَ رَسولِ اللهِ حاجةً تُريدونَها مِنهنَّ، فكَلِّموهُنَّ مِن وراءِ سِترٍ بينَكم وبَينَهنَّ.

---

(132) قيل: المشارُ إليه هنا جميعُ ما تقدَّمَ، وهو دخولُ بُيوتِ النَّبيِّ مِن غيرِ إذْنٍ، والمجيءُ قبْلَ نُضجِ الطَّعامِ مُنتظرينَ نُضْجَه، والجلوسُ فيها مُستأنسينَ للحديثِ بعدَ الفراغِ مِن الطَّعامِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/166)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5863).

وقيل: المشارُ إليه إطالتُهم الجُلوسَ في المنزِلِ، واستئناسُهم للحديثِ.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: 58)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/392، 393)، ((تفسير السعدي)) (ص: 670)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/86).

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾

أي: ذلك الأمرُ بسُؤالِهنَّ مِن وَراءِ حِجابٍ: أنقَى لقُلوبِكم وقُلوبِهنَّ مِن عوارِضِ النَّظَرِ، أو الخواطِرِ الَّتي تَعرِضُ للرِّجالِ في أمرِ النِّساءِ، وللنِّساءِ في أمرِ الرِّجالِ؛ وأَحرَى في السَّلامةِ مِن الرِّيبةِ ووَساوِسِ الشَّيطانِ.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾

أي: وما ينبغي لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تُؤذُوا رَسولَ اللهِ بأيِّ شَيءٍ مِن الأشياءِ.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69].

﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾

أي: ولا يَنبغي ولا يَحِلُّ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَنكِحوا أزواجَ رَسولِ اللهِ مِن بَعدِه أبدًا.

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾

أي: إنَّ أذيَّةَ رَسولِ اللهِ ونِكاحَ أزواجِه مِن بَعدِه: ذَنْبٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ تعالى.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54)

أي: إن تُظهِروا أيَّ شَيءٍ أو تُخفُوه في قُلوبِكم، فإنَّ اللهَ عَليمٌ بذلك وبِغَيرِه، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وسيُجازيكم على أعمالِكم الظَّاهِرةِ والخَفيَّةِ.

كما قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [آل عمران: 5].

وقال سُبحانَه: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر: 19].

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

أي: لا إثمَ على أزواجِ النَّبيِّ في تَركِ الاحتِجابِ مِن آبائِهنَّ، وأبنائِهنَّ، وإخوانِهنَّ، وأبناءِ إخوانِهنَّ، وأبناءِ أخواتِهنَّ، ومِن نِسائِهنَّ،(133) ومِن أرِقَّائِهنَّ الذُّكورِ والإناثِ المملوكينَ لهُنَّ.

---

(133) ذَهَبَ ابنُ جرير (١٩/ ١٧٣)، وكذا ابنُ عطية (٧/ ١٤٣) استنادًا إلى أثر ابن زيد إلى أنّ المراد بالنساء هنا: نساء المؤمنين.
كما قال ابن زيد وغيره.

كما قال تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ [النور: 31].

وَاتَّقِينَ اللَّهَ

أي: واتَّقِينَ –يا أزواجَ النَّبِيِّ– سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه في جميعِ أحوالِكنَّ في الخَلوةِ والعَلانيةِ؛ وذلك بامتِثالِ ما أمَرَكنَّ اللهُ به مِن الحِجابِ وغَيرِه، والانتِهاءِ عمَّا نهاكُنَّ عنه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

أي: إنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ؛ فاتَّقِينَ اللهَ وراقِبْنَه.

قال ابنُ عطية: "قوله: ﴿ولا نسائهن﴾ دخل فيه الأخوات، والأمهات، وسائر القرابات، ومَن يتصل مِن المتصرفات لهن، هذا قول جماعة من أهل العلم، ويؤيد قولَهم هذه الإضافةُ المُخَصِّصةُ في قوله: ﴿نسائهن﴾، فقال ابن زيد وغيره: إنما أراد: جميع النساء المؤمنات، وتخصيص الإضافة إنما هو في الإيمان.

وذهب إلى ذلك أيضًا ابنُ كثير (١١/ ٢٠٩)، ولم يذكر مستندًا.

سورةُ الأحزابِ

الآيات (56–58)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57)

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)

غَريبُ الكَلِماتِ:

لَعَنَهُمُ: أي: طرَدهم وأبعَدهم وأخزاهم وأهلَكَهم وأقْصاهم، وأصلُ اللَّعْنِ: الطَّردُ والإبعادُ على سبيلِ السَّخطِ.

بُهْتَانًا: أي: زورًا، وكَذِبًا، والبُهتانُ هو الكذبُ الَّذي يُبهَتُ سامعُه، أي: يدهشُ ويتحيَّرُ لِفَظاعتِه، وهو أفحشُ الكذِبِ، والبَهْتُ: التحيُّر والدَّهَشُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56).

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.

أي: إنَّ الله تعالى يُثني على نَبيِّه في الملأِ الأعلى، ومَلائِكتَه يُثنُونَ عليه ويَدْعُونَ له.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا ادْعُوا اللهَ بأن يُصَلِّيَ على نبيِّه محمَّدٍ - ﷺ -، وحيُّوه تحيَّةَ الإسلامِ، فقولوا: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه.[134]

عن كَعبِ بنِ عُجْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألْنا رَسولَ اللهِ - ﷺ -، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، كيف الصَّلاةُ عليكم أهلَ البَيتِ؛ فإنَّ اللهَ قد علَّمَنا كيف نُسَلِّمُ عليكم؟ قال: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ)).[135]

---

(134) قال ابنُ كثير (١١/ ٢١٠): «المقصـــود من هذه الآية: أن الله؟ أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيّه عنده في الملأ الأعلى بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمَيْن العلوي والسفلي جميعًا».

(135) رواه البخاري (3370) واللفظ له، ومسلم (406).

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتانا رَسولُ الله – ﷺ – ونحن في مجلِسِ سَعدِ بنِ عُبادةَ، فقال له بَشيرُ بنُ سَعدٍ: أمَرَنا اللهُ تعالى أن نُصَلِّيَ عليك يا رَسولَ اللهِ، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: فسكَتَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – حتَّى تمنَّيْنا أنَّه لم يَسأَلْه، ثمَّ قال رَسولُ الله – ﷺ –: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ، في العالَمينَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ، والسَّلامُ كما قد عَلِمتُم))(136).(137)

وعن أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رَسولَ اللهِ، كيف نُصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله – ﷺ –: قولوا: اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ)).(138)

---

(136) قولُه: ((والسَّلامُ كما قَدْ عَلِمتُم)): أي أنَّ كيفيَّةَ السَّلامَ عليَّ هي كما عَلِمتُم في التَّشهُّدِ، وهو قولُهم: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (125/4).

(137) رواه مسلم (405).

(138) رواه البخاري (3369) واللفظ له، ومسلم (407).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((علَّمَني رَسولُ اللهِ - ﷺ - -وكَفِّي بينَ كَفَّيْه- التَّشَهُّدَ، كما يُعَلِّمُني السُّورةَ مِن القُرآنِ: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه. وهو بيْنَ ظَهْرانَيْنا، فلمَّا قُبِضَ قُلْنا: السَّلامُ -يعني- على النَّبيِّ - ﷺ -)).[139]

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57).

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ

أي: إنَّ الَّذين يُؤذُونَ اللهَ بالكُفرِ به، أو بنِسبةِ الصَّاحِبةِ والوَلَدِ والشَّريكِ إليه، أو وَصْفِه بما لا يَليقُ به، أو بالإصرارِ على مَعصيتِه أو بغيرِ ذلك؛ ويُؤْذونَ رَسولَه مُحمَّدًا بالقَولِ أو الفِعلِ، كضَربِه، أو شَتمِه، أو وَصفِه بما لا يليقُ به: أبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رحمتِه في الدُّنيا وفي الآخِرةِ.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ - ﷺ -: ((قال اللهُ تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ،[140] بيَدِي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ)).[141]

---

(139) رواه البخاري (6265) واللفظ له، ومسلم (402).

(140) أنا الدَّهرُ: أي: أنا صاحبُ الدَّهرِ، ومُدَبِّرُ الأمورِ الَّتي تَنسبونَها إلى الدَّهرِ.
يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (3/1904).

(141) رواه البخاري (7491) واللفظ له، ومسلم (2246).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ – ﷺ –، قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمني ولم يكُنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان! وأمَّا شَتْمُه إيَّاي فقَولُه: لي ولَدٌ؛ فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولَدًا)).[142]

وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا

أي: وأعدَّ اللهُ لهم في الآخِرةِ عَذابًا يُهينُهم؛ جزاءً لهم على إيذائِهم اللهَ ورَسولَه.[143]

---

(142) رواه البخاري (4482).

(143) ذَهَب ابنُ كثير (١١/ ٢٤٠) إلى أنّ الآية عامَّة مستندًا إلى ظاهر الآية، وما ورد في السنة، فقال: «الظاهر: أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومَن آذاه فقد آذى الله، كما أنّ من أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، قال: حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة بن أبي رائطة الحذاء التميمي، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل المزني، قال: قال رسول الله – ﷺ –: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمَن أحبهم فبُحِبِّي أحبهم، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومَن آذى الله يوشك أن يأخذه»».

وقال ابنُ القيم (٢/ ٣٣٨): «ليس أذاه –سبحانه– مِن جنس الأذى الحاصل للمخلوقين، كما أنّ سخطه وغضبه وكراهته ليست مِن جنس ما للمخلوقين».

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)

أي: والَّذين يُؤذونَ المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم: فقد تحمَّلوا كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِهم عليهم بما هم منه بُرَآءُ، ويَتحمَّلونَ إثمًا ظاهِرًا.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا [النساء: 112].

سورةُ الأحزابِ

الآيات (59–62)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

غَرِيبُ الكَلِمَاتِ:

يُدْنِينَ: أي: يَلْبَسْنَ، ويُغطِّينَ، وإدناءُ الجِلبابِ: التَّقنُّعُ به وشَدُّه على الجَبينِ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المقارَبةُ.

جَلَابِيبِهِنَّ: أي: مَلاحِفِهنَّ وأردِيَتِهنَّ، وأصلُ (جلب) هنا: يدُلُّ على شَيءٍ يُغطِّي شَيئًا.

وَالْمُرْجِفُونَ: أي: الَّذين يُخبِرونَ بالأراجيفِ، وهي: الأكاذيبُ الَّتي يكونُ معها اضْطِرابٌ في النَّاسِ، والإرجافُ: إشاعةُ الباطِلِ؛ للاغتِمامِ به، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطِرابٍ.

لَنُغْرِيَنَّكَ: أي: لَنُسَلِّطَنَّك عليهم، وأصلُه مِن الغِراءِ: وهو ما يُلصَقُ به.

ثُقِفُوا: أي: أُدرِكوا ووُجِدوا وظُفِرَ بهم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في مجرَّدِ الإدراكِ.

سُنَّةَ اللَّهِ: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ واطِّرادِه في سُهولةٍ.

خَلَوْا: أي: مَضَوا وذَهَبوا، مِن: خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَب.

تفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك وبناتِك وجميعِ نساءِ المؤمنينَ يُرخِينَ جَلابيبَهنَّ[144] على أجسامِهنَّ إذا خرَجْنَ مِن بُيوتِهنَّ لحاجتِهنَّ.

---

(144) قال ابنُ عطية (٧/ ١٤٧): «الجلباب: ثوب أكبر من الخمار.
وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –، وابن مسعود – رضي الله عنهما –: أنه الرداء.
واختلف الناس في صورة إدنائه؛ فقال ابن عباس، وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها.
وقال ابن عباس أيضًا، وقتادة: وذلك أن تلويه فوق الجبين، وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر، ومعظم الوجه».
وقال ابنُ تيمية (٥/ ٢٧٠ – ٢٧١): «كانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب، يرى الرجلُ وجهها ويديها، وكان إذ ذاك يجوز لها أن تُظهِر الوجه والكفين، وكان حينئذ يجوز النظر إليها؛ لأنه يجوز لها إظهاره، ثم لما أنزل الله – عز وجل – آية الحجاب قوله: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وبنَاتِكَ ونِساءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ حجب النساء عن الرجال، وكان ذلك لما تزوج النبي – ﷺ – زينب بنت جحش، فأرخى الستر، ومنع النساء أن يُنظَرن».

عن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أُمِرْنا أن نُخرِجَ الحُيَّضَ يومَ العِيدينِ، وذواتِ الخُدورِ،[145] فيَشْهَدْنَ جماعةَ المُسلِمينَ ودَعوتَهم، ويَعتزِلُ الحُيَّضُ عن مُصَلَّاهنَّ. قالت امرأةٌ: يا رَسولَ اللهِ، إحدانا ليس لها جِلبابٌ؟ قال: لِتُلبِسْها صاحِبَتُها مِن جلبابِه)).[146]

ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ

أي: إرخاءُ النِّساءِ مِن جَلابيبِهِنَّ عليهِنَّ عندَ خُروجِهِنَّ مِن بُيوتِهِنَّ: أقرَبُ لِئَلَّا يَتعَرَّضَ لهنَّ المنافِقونَ والفُسَّاقُ بأذًى؛ فحِينَ يَرَونَهنَّ مُتَسَتِّراتٍ يَعرِفونَ أنَّهنَّ حرائِرُ، وأنَّهنَّ عفيفاتٌ فلا يَطمَعونَ فيهنَّ.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفرةِ أزَلًا وأبدًا؛ فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ؛ فهو رَحيمٌ بعبادِه، ومِن ذلك شَرعُه لهم مِنَ الأحكامِ ما فيه صَلاحُهم.

---

(145) ذواتُ الخُدورِ: أي: اللَّاتي قَلَّ خُروجُهنَّ مِن بُيوتِهنَّ.
والخُدورُ: السُّتورُ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (1063/3).

(146) رواه البخاري (351) واللفظ له، ومسلم (890).

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60)

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ

أي: لَئِنْ لم يَنتَهِ الَّذين يُخْفُونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، والمُشِيعُونَ في المدينةِ الأخبارَ الكاذِبةَ الباطِلةَ لتَخويفِ المؤمِنينَ؛ لَنُسَلِّطَنَّك –يا رَسولَ اللهِ– عليهم، ولنحمِلَنَّك على مُؤاخذتِهم إن استَمَرُّوا على ذلك.

ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا

أي: ثمَّ لا يَسكُنونَ المدينةَ معك إلَّا مُدَّةً قَليلةً.(147)

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61)

مَلْعُونِينَ

أي: مَطرودينَ مُبعَدينَ.(148)

(147) قال ابنُ عطية (٧/ ١٤٩): «قوله: ﴿إلا قليلا﴾ يحتمل: أن يريد إلا جوارًا قليلًا أو وقتًا قليلًا، ويحتمل: أن يريد إلا عددًا قليلًا، كأنه قال: إلا أقِلّاء».

(148) ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ، أي: مَطرودون مُبعَدون: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والسعدي.

أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا

أي: في أيِّ مكانٍ وُجِدوا، أُسِروا وقُتِلوا.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

أي: سَنَّ اللهُ بهم سُنَّتَه المعلومةَ في الذين مَضَوْا مِن قبلُ: أن يُعاقِبَهم بتَسليطِ المؤمِنينَ عليهم، فيأخُذونَهم ويُقَتِّلونَهم تَقتيلًا.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (186/19)، ((تفسير الثعلبي)) (64/8)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5873/9)، ((تفسير البغوي)) (665/3)، ((تفسير الخازن)) (437/3)، ((تفسير ابن كثير)) (483/6)، ((تفسير العليمي)) (391/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 672).

وقال جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ: (مَلْعُونينَ مُبْعَدينَ عن الرَّحمةِ).

((تفسير الجلالين)) (ص: 560).

قال الرَّسْعَنيُّ: (مَلْعُونِينَ نُصِب على الذَّمِّ، أو على الحالِ، أي: لا يُجاوِرونك إلَّا مَلْعونين.

وقيل: إنَّ قَلِيلًا نُصِب على الحالِ أيضًا، على معنى: لا يُجاوِرونك إلَّا أَقِلَّاءَ أذِلَّاءَ مَلْعونينَ).

((تفسير الرسعني)) (198/6).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (186/19)، ((تفسير ابن جزي)) (159/2).

ممَّن اختار أنَّه منصوبٌ على الحالِ، وأنَّ المعنى: لا يُجاوِرونك إلَّا وهم مَلْعونون: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (236/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (484/3)، ((تفسير العليمي)) (391/5).

قال ابن عثيمين: (المعنى: ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا في حالِ كونِهم ملعونينَ حالَ المجاورةِ، يعني حتى في بقائِهم عندَك يكونونَ ملعونينَ مطرودينَ مبعدينَ، لا يألفُهم أحدٌ، ولا يَحنو عليهم).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 495، 496).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (483/6).

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

أي: ولن تَجِدَ –يا مُحَمَّدُ– لعادةِ اللهِ الَّتي سَنَّها في خَلقِه تَغييرًا.

كما قال تعالى: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا [الإسراء: 77].

وقال سُبحانَه: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [فاطر: 43].

سورةُ الأحزابِ

الآيات (63–68)

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا

(63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64)

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65)

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66)

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ

وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

سَعِيرًا: أي: نارًا تَتسعَّرُ، أي: تشتعِلُ وتتَّقِدُ وترتفِعُ، والسَّعيرُ اسمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا

(63).

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.

أي: يَسألُك النَّاسُ –يا مُحمَّدُ– عن يومِ القيامةِ متى يكونُ؟[149]

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ.

---

(149) قيل: المرادُ بالنَّاسِ هنا: المُشرِكون.

وممَّن قال بذلك: البِقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (415/15).

قال القرطبي: (قوله تعالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ هؤلاء المُؤْذُون لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لَمَّا تُوُعِّدوا بالعذابِ سألوا عن السَّاعةِ؛ استبعادًا وتكذيبًا، موهِمين أنَّها لا تكونُ).

((تفسير القرطبي)) (248/14).

وقيل: المرادُ: المُشرِكون واليهودُ؛ فكان المشركون يَسألون استعجالًا على سبيلِ الهُزْءِ، واليهودُ يَسألونه امتِحانًا.

وممَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (562/3)، ((تفسير النسفي)) (46/3)، ((تفسير أبي السعود)) (116/7).

وزاد الألوسي على المشركينَ واليهودِ: المنافقينَ، وأنَّهم كانوا يَسألون تعَنُّتًا.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (267/11).

وقيل: المرادُ: عمومُ النَّاسِ؛ فيدخُلُ في ذلك المؤمنونَ والكافِرون.

وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (112/22)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة الأحزاب)) (ص: 506).

أي: قُلْ لهم: لا يَعلَمُ متى تكونُ القيامةُ إلَّا اللهُ وَحْدَه.

كما قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ [الأعراف: 187].

وقال سُبحانَه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا [النازعات: 42 – 44].

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا.

أي: وما يُدريك –يا مُحمَّدُ– لعلَّ وَقتَ مجيءِ القيامةِ قد دنا واقترَب.

كما قال تعالى: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل: 1].

وقال الله سُبحانَه: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ [الأنبياء: 1].

وقال عزَّ وجلَّ: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1].

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64).

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ.

أي: إنَّ اللهَ طَرَد الكافِرينَ وأبعَدَهم عن رَحمتِه.

وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا.

أي: وأعدَّ لهم نارًا شَديدةَ الإيقادِ؛ لِتعذيبِهم بها.

كما قال تعالى: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [الفتح: 6].

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65).

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

أي: ماكِثينَ في النَّارِ إلى غيرِ نهايةٍ، فلا يَخرُجون منها.

لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.

أي: لا يَجِدونَ وَليًّا يَتولَّاهم ويَنفَعُهم ويَحفَظُهم، ولا نصيرًا يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66).

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ.

أي: يومَ(150) تُقلَّبُ وُجوهُ الكافِرينَ في النَّارِ مِن جِهةٍ إلى أُخرى.

---

(150) قيل: الظَّرفُ هنا مُتعَلِّقٌ بما سبق، فيكونُ المعنى: لا يجِدُ هؤلاء الكافرون وليًّا ولا نصيرًا في يومِ تُقلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي.

يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا.

أي: يَقولُ الكافِرونَ وهم نادِمونَ: يا لَيْتنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه في الدُّنيا، فسَلِمْنا مِن عذابِ الآخرةِ.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27-29].

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67).

أي: وقال الكافِرونَ: رَبَّنا إنَّا أطَعْنا في الدُّنيا أئِمَّتَنا في الضَّلالِ؛ مِن الكُفرِ بك، ومَعصيتِك، ومُخالَفةِ رَسولِك؛ فصَرَفونا عن طريقِ الحَقِّ.

رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/188)، ((تفسير أبي السعود)) (7/116)، ((تفسير الشوكاني)) (4/351)، ((تفسير الألوسي)) (11/267).

وقيل: الظَّرفُ هنا مُنتَصِبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ.

ومِمَّن اختاره: القِنَّوْجي.

يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (11/149).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (22/116).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ العامِلَ قولُه تعالى: وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، ويحتمِلُ أنَّها خَالِدِينَ، ويحتملُ أنَّها يَجِدُونَ، فتكونُ تنازعت فيها العوامِلُ الثَّلاثةُ، ويحتمِلُ أنَّ العامِلَ محذوفٌ، أي: اذكُرْ يومَ تقلَّبُ وجوهُهم.

وكُلُّ هذا مُحتمِلٌ، وكُلُّ هذا هو الواقِعُ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 515).

رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ.

أي: ربَّنا عذِّبْهم مِثْلَيْ عَذابِنا.

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 38].

وقال سُبحانَه: قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ [ص: 61].

وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا.

أي: واطرُدْهم وأبعِدْهم مِن رَحمتِك طَردًا وإبعادًا عَظيمًا.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

قِراءةُ كَبِيرًا قيل: المعنى: لَعْنًا عظيمًا شديدًا غَليظًا.(151)

قِراءةُ كَثِيرًا قيل: على معنى أنَّهم يُلعَنونَ مرَّةً بعدَ مَرَّةٍ. وقيل: المعنى: اطرُدْهم عن محالِّ الرَّحمةِ طَرَدًا مُتناهِيًا في العدَدِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ.(152)

---

(151) قرأ بها عاصم.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 580)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/420).

(152) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/349).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 580)، ((تفسير القرطبي)) (14/250)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/420).
قال الأزهري: (معنى الكبيرِ والكثيرِ متقارِبٌ، والثَّاءُ أكثرُ. واللهُ أعلَمُ).
((معاني القراءات)) (2/286).
وقال القرطبي: (قراءةُ الباءِ ترجِعُ في المعنى إلى الثَّاءِ؛ لأنَّ ما كَبُرَ كان كثيرًا عظيمَ المِقْدارِ).
((تفسير القرطبي)) (14/250).
وقال ابن عثيمين: (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا وهذا باعتبارِ الكَمِّيَّةِ، ولَعْنًا كَبِيرًا باعتبارِ الكيفيَّةِ).
((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: 520، 521).

سورةُ الأحزابِ

الآيات (69–71)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا
(69) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70)
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَجِيهًا: أي: ذا مَنزلةٍ عاليةٍ عندَ اللهِ، وشَرَفٍ وكرامةٍ؛ يقال: وَجُهَ الرَّجُلُ وَجاهةً، فهو وَجيهٌ، وهذا الفِعلُ مُشتَقٌّ مِن الوَجهِ الَّذي للإنسانِ.

سَدِيدًا: أي: مستقيمًا، صَوابًا، حَقًّا غيرَ باطِلٍ، والسَّدادُ: القصدُ في القولِ، وأصلُ (سدد): يدُلُّ على رَدْمِ شَيءٍ ومُلاءَمَتِه، ومِن ذلك السَّديدُ: ذو السَّدادِ، أي: الاستقامةِ؛ كأنَّه لا ثُلْمَةَ فيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تكونوا كالَّذين آذَوا موسى، فاتَّهَموه أو رَمَوه بالعَيبِ كَذِبًا، فتُؤذوا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم بقَولٍ أو فِعلٍ يَكرَهُه.[153]

(153) اختُلِف في تأويل الأذى الذي أوذي به موسى المذكور في هذا الموضع على أربعة أقوال: أولها: أنهم رموه بأنه آدر.

والثاني: أنهم وصفوه بأنه أبرص.

والثالث: أنهم ادَّعَوا عليه قتل هارون أخيه.

والرابع: أن قارون أرسل بغيًّا لتدعي عليه.

وذَهَبَ ابنُ جرير، وكذا ابنُ كثير إلى جواز ذلك كله لعدم دليل التخصيص، فقال ابنُ جرير (١٩/ ١٩٤ - ١٩٥): «أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به.

وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم: إنه أبرص.

وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون.

وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذُكِرَ كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا».

وقال ابنُ كثير (١١/ ٢٤٨): «يحتمل أن يكون الكل مرادًا، وأن يكون معه غيره».

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَسَم رَسولُ اللهِ – ﷺ – قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّها لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجْهُ اللهِ! قال: فأتيتُ النَّبيَّ – ﷺ – فسارَرْتُه، فغَضِبَ مِن ذلك غضَبًا شَديدًا، واحمَرَّ وَجهُه حتَّى تمَنَّيتُ أنِّي لم أذكُرْه له! قال: ثمَّ قال: قد أُوذِيَ موسى بأكثَرَ مِن هذا فصبرَ!!)).[154]

فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا.

أي: فأظهَرَ اللهُ براءةَ موسى ممَّا اتَّهمه ورماه به بنو إسرائيلَ كَذِبًا وباطِلًا.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ موسى كان رَجُلًا حَيِيًّا ستيرًا[155] لا يُرَى مِن جِلْدِه شَيءٌ؛ استِحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيلَ، فقالوا: ما يَستتِرُ هذا التَّستُّرَ إلَّا مِن عَيبٍ بجِلْدِه: إمَّا بَرَصٍ، وإمَّا أُدْرَةٍ،[156] وإمَّا آفةٍ! وإنَّ اللهَ أراد أن يُبَرِّئَه ممَّا قالوا لموسى، فخَلا يومًا وَحْدَه، فوضَعَ ثيابَه على الحَجَرِ ثمَّ اغتسَلَ، فلمَّا فرَغ أقبَلَ إلى ثيابِه لِيأخُذَها، وإنَّ الحَجَرَ عَدا بثَوبِه، فأخَذَ موسى عصاه وطلَبَ الحَجَرَ، فجعل يقولُ: ثَوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! حتَّى انتهى إلى ملأٍ مِن بني إسرائيلَ، فرأوه عُريانًا أحسَنَ ما خَلَقَ اللهُ وأبرأَه ممَّا يقولونَ، وقام الحَجَرُ، فأخَذَ ثَوبَه فلَبِسَه،

---

(154) رواه البخاري (3150)، ومسلم (1062) واللَّفظُ له.

(155) «سَتِيرًا» –بالتخفيفِ– على وزنِ فَعيلٍ، بمعنى فاعلٍ، أي: مِن شأنِه وإرادتِه حُبُّ السترِ والصَّونِ، ويُقالُ: «سِتِّيرًا» –بالتَّشديدِ–، مبالغةُ ساترٍ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (436/6)، ((عمدة القاري)) للعيني (301/15)، ((مرقاة المفاتيح)) لملا القاري (3642/9).

(156) الأُدْرَةُ: نَفخٌ في الخُصيَتينِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (385/5).

وطَفِقَ بالحَجَرِ ضربًا بعَصاه! فواللهِ إنَّ بالحَجَرِ لَنَدَبًا[157] مِن أثَرِ ضَرْبِه: ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا! فذلك قولُه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)).[158]

وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا.

أي: وكان موسى عندَ الله عظيمًا ذا قَدْرٍ ومَنزلةٍ عاليةٍ وجاهٍ، وقَبولٍ واستِجابةٍ لِدُعائِه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه.

---

(157) لَنَدَبًا: أي: أثرًا وعَلامةً باقيةً مِن أثَرِ ضربِه، وأصلُ النَّدَب: أثَرُ الجُرحِ إذا لم يرتفِعْ عن الجِلدِ، فشُبِّهَ به أثَرُ الضَّربِ بالحَجَرِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3643/9).

(158) رواه البخاري (3404) واللفظ له، ومسلم (339).

وما رواه أبو هُرَيرة رضيَ اللهُ عنه هنا عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أُوذيَ به موسَى عليه أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ، كما ذكَر السَّمْعانيُّ في ((تفسيره)) (309/4).

وقال ابنُ جرير-بعدَما حكَى أقوالَ المفسِّرينَ في ذلك-: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ بني إسرائيلَ آذَوْا نبيَّ اللهِ ببَعضِ ما كان يَكرَهُ أن يُؤذَى به، فبَرَّأه اللهُ مِمَّا آذَوْه به، وجائزٌ أن يكونَ ذلك ما ذُكِر أنَّهم قالوا: إنَّه آدَرُ، وجائزٌ أن يكونَ قِيلَهم إنَّه أبرَصُ، وجائزٌ أن يكونَ ادِّعاءَهم عليه قَتْلَ أخيه هارونَ، وجائزٌ أن يكونَ كُلَّ ذلك؛ لأنَّه قد ذُكِر كُلُّ ذلك أنَّهم قد آذَوْه به، ولا قولَ في ذلك أَوْلى بالحَقِّ مِمَّا قال اللهُ إنَّهم آذَوْا موسى، فبَرَّأه اللهُ مِمَّا قالوا).

((تفسير ابن جرير)) (194/19، 195).

وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا.

أي: وقولوا في الرَّسولِ والمؤمنينَ وفي جميعِ كلامِكم قولًا حقًّا صوابًا، مُستقيمًا لا انحِرافَ فيه.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71).

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.

أي: يُوفِّقْكم اللهُ في أعمالِكم، فيَجعَلْها صالِحةً، ويَتقبَّلْها منكم.

كما قال تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [المائدة: 27].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا [الطلاق: 4].

وقال الله عزَّ وجلَّ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 5 – 7].

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، فيَستُرْها عليكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم بها.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا [الطلاق: 5].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الأنفال: 29].

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فقد فاز فوزًا عَظيمًا؛ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِ الجنَّةِ.

كما قال تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

سورةُ الأحزابِ

الآيتان (72–73)

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا73))

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

فَأَبَيْنَ: أي: امتَنَعْنَ، والإباءُ: هو امتناعٌ باختيارٍ، وأبَى الشَّيءَ: لم يَرْضَه، وأبى عليه: امْتَنع، وهو غيرُ الاستكبارِ، وكلُّ إباءٍ: امْتناعٌ بلا عكسٍ، فإنَّ الإباءَ شدَّةُ الامتناعِ، وأصلُ (أبي): يَدُلُّ على الِامْتِناعِ.

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا: أي: خِفْنَ مِن الأمانةِ أن لا يُوفِّيْنَها، فيَلحَقَهنَّ العقابُ، والإشفاقُ: عنايةٌ مختلطةٌ بخَوفٍ، وإذا عُدِّي بـ (مِن) فمعنَى الخوفِ فيه أظهرُ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآيتَين:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72).

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ.

أي: إنَّا عرَضْنا الأوامِرَ والنَّواهيَ والفرائِضَ والطَّاعاتِ[159] على السَّمَواتِ والأرضِ والجِبالِ، فتُثابُ على حَمْلِها والقيامِ بها، وتُعاقَبُ على تَرْكِ ذلك.[160]

---

(159) اختُلِف في تأويل الأمانة على ثلاثة أقوال: أولها: أنها كل شيء يؤتمن الإنسان عليه مِن أمر ونهي وشأنِ دينٍ ودنيا، فالشرع كله أمانة.

والثاني: أنها الأمانات التي يأتمن الناس بعضهم بعضًا عليها مِن مال وغيره.

والثالث: أنها ائتمان آدم ابنه قابيل على أهله وولده حين أراد التوجه إلى أمر ربه، فخان قابيل الأمانة في قتل أخيه هابيل.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٩/ ٢٠٤ - ٢٠٥) القولَ الأولَ -وهو قول الجمهور- استنادًا إلى عموم لفظ الآية، فقال: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس، وذلك أن الله لم يخص بقوله: ﴿عرضنا الأمانة﴾ بعض معاني الأمانات لما وصفنا».

وقال ابنُ كثير (١١/ ٢٥١): «كل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل متفقة، وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا مَن وفق الله».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ١٥٣) قولين آخرين: الأول: أن معنى الآية: إنا عرضنا الأمانة في نواهينا وأوامرنا على هذه المخلوقات فقمن بأمرنا، وأطعن فيما كلفناها، وتأبّين من حمل المذمة في معصيتنا، وحمل الإنسان المذمة فيما كلفناه من أوامرنا وشرعنا، ونسبه للزجاج، وعلَّق عليه بقوله: «و﴿الإنْسانُ﴾ -على تأويله-: الكافر والعاصي».

ثم قال (ط: دار العلمية ٤/ ٤١٢): «وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فعلى التأويل الذي حكيناه عن الجمهور [يعني: القول الأول] يكون قوله تعالى: ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ إجابة لأمر أمرت به، وتكون هذه الآية إباية وإشفاقًا من أمر عرض عليها وخيرت فيه».

الثاني: أن الآية من المجاز، أي: أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبتها وأشفقت، فُعبّر عن هذا المعنى بالآية، وهذا كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه.

وأنت تريد بذلك قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه.

(160) قال الواحدي: (الأمانةُ في هذه الآيةِ في قولِ جميعِهم: الطَّاعةُ والفرائِضُ الَّتي يتعلَّقُ بأدائِها الثَّوابُ، وبتضييعِها العِقابُ).

((البسيط)) (302/18).

وقال أبو حيَّان: (والأمانةُ: الظَّاهِرُ أنَّها كلُّ ما يُؤتَمَنُ عليه مِن أمرٍ ونَهْيٍ، وشأنِ دِينٍ ودُنيا، والشَّرعُ كلُّه أمانةٌ. وهذا قولُ الجمهورِ).

((تفسير أبي حيان)) (509/8).

عن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((حدَّثَنا رَسولُ اللهِ - ﷺ - حَديثَينِ، رأيتُ أحَدَهما، وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أنَّ الأمانةَ نَزَلت في جَذْرِ[161] قُلوبِ الرِّجالِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ القرآنِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثَنا عن رَفْعِها، قال: يَنامُ الرَّجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلْبِه، فيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ أثَرِ الوَكْتِ،[162] ثمَّ يَنامُ النَّومةَ فتُقبَضُ فيَبقى أثَرُها مِثْلَ المَجْلِ[163]؛ كجَمرٍ دحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ[164] فتَراه مُنتَبِرًا وليس فيه شَيءٌ! فيُصبِحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ! فيُقالُ: إنَّ في بني فُلانٍ رجُلًا أمينًا! ويقال للرَّجُلِ: ما أعْقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجْلَدَه! وما في قَلْبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَردلٍ مِن إيمانٍ! ولقد

وقال السَّمعاني: (قَولُ أكثَرِ السَّلَفِ، وهو المحكيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجماعةِ التَّابِعينَ: هو أنَّ الله تعالى عرَض أوامِرَه على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ عَرْضَ تخييرٍ لا عَرْضَ إلزامٍ، وقال لهنَّ: أتَحمِلْنَ هذه الأمانةَ بما فيها؟ قُلْنَ: وما فيها؟ فقال: إنْ أحسَنْتُنَّ جُوزِيتُنَّ، وإن عَصَيتُنَّ عُوقِبتُنَّ.

فقُلْنَ: لا نتحَمَّلُ الأمانةَ ولا نُريدُ ثوابًا ولا عِقابًا؛ وعرَضَها على آدَمَ فتحَمَّلَها بما فيها!).

((تفسير السمعاني)) (312/4).

(161) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيءٍ.

يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (448/1).

(162) الوَكْتُ: الأثَرُ اليسيرُ، كالنُّقطةِ في الشَّيءِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3379/8).

(163) المَجْلُ: أثَرُ العَمَلِ في اليَدِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (39/13)، ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3379/8).

(164) نَفِطَ: أي: وَرِمَ وامتَلأ ماءً.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (197/1).

أتَى علَيَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايَعتُ؛ لَئِنْ كان مُسلِمًا رَدَّه علَيَّ الإسلامُ، وإنْ كان نصرانيًّا ردَّه علَيَّ ساعِيه، فأمَّا اليَومَ فما كنتُ أُبايعُ إلَّا فُلانًا وفُلانًا!!)).[165]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بيْنما النَّبيُّ – ﷺ – في مجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاء أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضَى رسولُ اللهِ – ﷺ – يُحدِّثُ، فقال بَعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ. حتَّى إذا قضَى حديثَه قال: أين السَّائِلُ عن السَّاعةِ؟ قال: ها أنا يا رَسولَ اللهِ. قال: فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ، فانتَظِرِ السَّاعةَ. قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ[166] الأمرُ إلى غيرِ أهلِه، فانتَظِرِ السَّاعةَ)).[167]

فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا.

أي: فلمْ تَقبَلِ السَّمَواتُ والأرضُ والجِبالُ أن تختارَ امتِثالَ الأوامِرِ واجتنابَ النَّواهي على الثَّوابِ والعِقابِ، وخِفْنَ مِن عذابِ اللهِ على عدَمِ القيامِ بذلك.

---

(165) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (285/9).

(166) وُسِّد: أي: أُسنِدَ وفُوِّضَ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3429/8).

(167) رواه البخاري (59).

وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ.

أي: وحمَلَ الإنسانُ[168] الأمانةَ!

إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا.

أي: إنَّ الإنسانَ واقِعٌ في ظُلمِ نَفْسِه، والجَهلِ برَبِّه وشَرْعِه وقَدْرِ الأمانةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم: 34].

---

(168) قيل: المرادُ: نوعُ الإنسانِ، وليس فردًا بعَيْنِه.

وممَّن قال بهذا: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: 126)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/125).

قال السمرقندي: (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ يعني: آدَمَ وذُرِّيَّتَه).

((تفسير السمرقندي)) (3/76).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانِي، والبغوي، والعُلَيمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/510)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 875)، ((تفسير السمعاني)) (4/313)، ((تفسير البغوي)) (3/669)، ((تفسير العليمي)) (5/395)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/259).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وابنُ جُرَيجٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/205)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/669).

قال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ الضَّميرَ في قولِه: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا راجِعٌ لِلَفْظِ: «الإنسان» مُجَرَّدًا عن إرادةِ المذكورِ منه، الَّذي هو آدَمُ.

والمعنَى: أنَّه -أي: الإنسانَ- الَّذي لا يحفظُ الأمانةَ كان ظلومًا جهولًا، أي: كثيرَ الظُّلمِ والجهلِ).

((أضواء البيان)) (6/259).

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73).

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ.

أي: لِيُعذِّبَ اللهُ الَّذين خانوا الأمانةَ مِن المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ، ويُعَذِّبَ المُشرِكينَ والمُشرِكاتِ باللهِ تعالى.(169)

---

(169) قال ابنُ القيِّم: (الخِطابُ للإنسانِ مِن حيثُ هو إنسانٌ على طريقةِ القُرآنِ في تناوُلِ الذَّمِّ له مِن حيثُ هو إنسانٌ؛ كقَولِه: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: 11]، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا [الإسراء: 100]، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [العاديات: 6]، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ [الحج: 66]، ونظائِرُه كثيرةٌ؛ فالإنسانُ -مِن حيثُ هو- عارٍ عن كُلِّ خيرٍ مِن العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكَمِّلُه بذلك ويُعطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نفْسِه إلَّا الجَهلُ المُضادُّ للعِلمِ، والظُّلمُ المُضادُّ للعَدلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدلٍ وخَيرٍ فيه: فمِنْ رَبِّه، لا مِن نفْسِه). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: 192).

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/511)، ((تفسير ابن جرير)) (19/205، 206)، ((تفسير القرطبي)) (14/258)، ((تفسير ابن كثير)) (6/493).

اختُلِف في اللَّامِ: هل هي للعاقِبةِ، أو للتَّعليلِ؛ فقيل: هي لامُ التَّعليلِ.

وممَّن قال بهذا: القرطبي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (14/258)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (6/259).

وقيل: هي لامُ العاقِبةِ.

وممَّن قال بهذا: القُشَيري، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير القشيري)) (3/174)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/131).

واختُلِف في متعلَّقِ اللامِ؛ فقيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: لِيُعَذِّبَ متعلِّقةٌ بقَولِه سُبحانَه: عَرَضْنَا.

وممَّن قال بهذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/511)، ((تفسير السمرقندي)) (3/77).

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

أي: ولِيَتوبَ اللهُ على المؤمِنينَ والمؤمِناتِ؛ الَّذين قاموا بما أمَرَهم اللهُ، ولم يَخونوا الأمانةَ، فيَغفِرَ اللهُ لهم ذُنوبَهم، ويَرحَمَهم، ويُوفِّقَهم لطاعتِه.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ.

قال مقاتِلٌ: (عرَضْنا الأمانةَ على الإنسانِ؛ لِكَيْ يعذِّبَ اللهُ المنافِقينَ والمنافِقاتِ والمشرِكينَ والمشرِكاتِ بما خانوا الأمانةَ، وكذَّبوا الرُّسلَ...).

((تفسير مقاتل بن سليمان)) (511/3).

وقيل: هي مُتعلِّقةٌ بقولِه تعالى: وَحَمَلَهَا.

وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (205/19)، ((تفسير القرطبي)) (14/ 258)، ((تفسير ابن كثير)) (493/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (131/22)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (259/6).

قال أبو السعود: (حملَها الإنسانُ لِيُعذِّبَ اللهُ بعضَ أفرادِه الَّذينَ لم يُراعوها، ولم يقابلُوها بالطَّاعةِ، على أنَّ اللَّامَ للعاقِبةِ).

((تفسير أبي السعود)) (118/7).

وقال ابنُ قُتَيْبةَ: (أي: عرَضْنا ذلك عليه لِيَتقلَّدَه، فإذا تقلَّدَه ظهَرَ نِفاقُ المنافِقِ، وشِركُ المُشرِكِ، فعذَّبَه اللهُ به، وظهَرَ إيمانُ المؤمِنِ، فتاب اللهُ عليه).

((تأويل مشكل القرآن)) (ص: 245).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الخامسُ والعشرونَ

ويَليه المجلَّدُ السَّادسُ والعشرونَ، وأوَّله: سورةِ سبأ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا